

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أسطورة الكتابة

كتاب ينقذ طفلاً

مجموعة من الكُتّاب

أسطورة الكتابة

كتاب ينقذ طفلاً

أسطورة الكتابة

كتاب ينقذ طفلاً

مجموعة من الكُتّاب

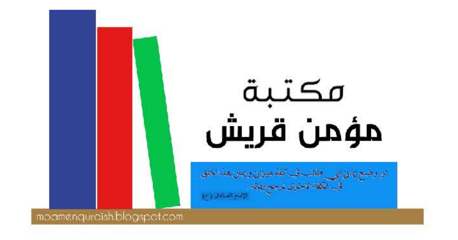


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1474-6





عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **الفنان مهدي عبده**

الرسوم: **الفنانة نوف الإسماعيل**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى الطفولة العربية المعذّبة

المحتويات

تقديم

لا يزال العالم العربـــي غارقاً في حروبه ومجاعاته، يحمل الجهل على كتف، وعلى الآخر فاقته، التي تودي كل عام بأرقام إحصـــائية غدا ذكرها، بشكلٍ ما، عاراً لا يسبّب حرجاً، وصـــار الألم الـــذي تسبّبه عضواً من أعضائنا التي نتعايش معها، فما الذي يمكن لنا، نحن عشيرة القلم، أن نفعله لمجابهة، ولو القليل من كل هذه الفوضى؟

يمكننا أن نكتب..

لأن الكتابة أنقذتنا يوماً ما، وقد كنا قبلها نجهل الفرق بين الألم وبين الإحساس به والعيش معه، بين الجهل ذاته وبين أن ندرك فداحة أن نستظلّ به..

يمكننا أن نكتب..

لأن ثمة أطفالاً بحاجة للمعرفة، فهي نافذة النور الوحيدة الـــتي بإمكانها أن تمسح زاوية من هذا الغبش، ونحن نعرف كم هي المسافة شاسعة بين الفرصة المتاحة، والفرصة التي تظل حلماً بالنسبة لطفل لا يعي موضعه الذي ورّطه به العالم..

باستطاعتنا أن نضع كتاباً صغيراً، يكتب فيه 29 كاتبة وكاتباً، يوجّهون رسائلهم التي يختارون فيها طفلاً يخاطبونه، يتحدثون إليـــه عمّا يمكن للكتابة أن تفعل، وما يمكن للمعرفة أن تنقذ، يحدّثونه عن الجمال الكامن في طيّات المعلومة الجديدة، وعـــن الشـــغف الـــذي يتشكّل بالسؤال مع كل سطر..

لقد تبنّت الدار العربية للعلوم ناشرون، تنفيذ الفكرة وتوزيــع الكتاب، كما ستتولّى الإعلان عنه، بالإضافة إلى مــا ســيقوم بــه الكتّاب المشاركون من الترويج عبر الشبكات الاجتماعية والوسائط الإعلامية، وسيتمّ رصد الأرباح للإنفاق على تعليم أطفال عــرب! على أن يتم التواصل مع إحدى المؤسسات العربية المتخصصة عــن طريق الدار، لتتولّى بدورها الإشراف على هذه المسألة.

لا بد أن الكتابة تنقذ العالم، وإلاّ ما تعلّقنا بها باعتبارها طوقنــا الوحيد الذي رمينا به..

بثينة العيسى سعديّة مفرّح معتز قطينة غسان شبارو

الشاعر بينكم.. مثلكم.. معكم

إبراهيم الوافي

منذ أن حنقت من ظلّي الذي يتبعني ويقلّدني بحماقات لا تنتهي وأنا أبحث في الصفحات عني.. كلما قرأت كتاباً بحثت فيه عما يشبهني أو حتى يشبه ظلّي.. أول مرّة شعرت بسطوة القراءة عليّ حينما كنت في قريتي الأولى، ابن السابعة حين غرق ظلّي بمستنقع مائي في الشارع فتشبّث بورقة سقطت من كتاب ليركلها أحد المارّة بقدمه وتقبع بالمستنقع لتنقذ ظلّي أخيراً.. كانت ورقةً من كتاب تاريخي تراثي قديم عبارة عن حكاية وقصيدة لا زلت أحفظها حرفاً حرفاً وأنا على مشارف الخمسين.. كان إحساساً عميقاً أن تدفعني لأتّحد مع ظلي في ذلك المستنقع وأخذه معي على ورقة عرّفتني بي وبه على طاولة القراءة..!

القراءة قبل الكتابة ومعها وبعدها.. هي سفر لا ينتهي مع المعرفة التي لا تعرف متى ستحتاجها ومتى ستحياها كي لا تموت، لكنك حتماً ستفتقدها دائماً حينما تهملها..

أصْدَقكم أيها الأصدقاء الصغار لا يكتب من لا يقرأ ولا يكون من لا تتكاثر خطواته في ذاكرته المعرفية.. هذا عن حكايتي مع القراءة.. أما ما أنا فيه بينكم فستتساءلون دائماً عن زمن الشعر،

وأوسمة الكتابة ثم ينثرون للكلام السائب قصاصات الضوء، وللغناء مضارب الصور.

يعلّقون الشعر في عنق وردة، تتدلى من سور جارتنا، يستنشقها المارة حدّ الذبول، ثم تتساقط حبيبات صفراء على رصيف متعب بالظلال.. والشعر لم يكن إلا جوهراً محترقاً، أو فقيراً يتسول بالحب الحياة، أو مجنوناً سيردد أن (أعذب الشعر امرأة)، وأتعبه المستحيلة منهن!

وأكذبه ما لم يكتبه ابن زيدون في غضب ولاّدة، وما لم يقرؤه جبران في رسالات مي..!

الشعر بكارة الحقيقة..!

عذرية فتاة مغتصبة..!

سرير امرأة فارهة الذكاء..

ولادة الدهشة.. ومهارات الكلام في صراع الحياة الصامتة عن اللغو..!

الشعر قارورة عطر أنيقة على تسريحة امرأة إباحية المنشأ عذرية المعتقد.. هكذا تماماً ننقع الروح في إناء الشجن.. فيخرج الكلام عناقيد ضوء مشبعة ببخور أرواحنا..!

كل قادر على (مد) الآه.. ومماحكة الحروف..!

كل قادر على أن يشعر دقائقه، ويكبر في محراب روحه!

لكن الشعراء وحدهم يكتبون ما يذنبون.. ويعترفون دون أن يفرّقوا بين ما يقترفون وما يحترفون..!

ينثرون الليل كالشجر، والصباح كالمآذن.. تتآكل في كلماتهم التواريخ وتتسوّس بأحزانهم أسنان الوقت..!

خارطتهم الريح.. وثوابهم الضوء.. وأمنياتهم الفقر!

حين أخرجهم أفلاطون من مدينته بدعوى الفوضى رتّبوا بفوضاهم أحلام المغلوبين على أحزانهم..

وحينما تكسّبوا بالشعر ماتوا دون تاجه!

الشعراء منذ (فقر) الأيام عاشوا أغنياءها.. ومنذ غبار الرفوف كانوا أوراق التاريخ الصفراء..

لم يعلّقوا قصائدهم في أستار الكعبة كما يدّعي بعض أنصارهم الأولين.. لكنهم علّقوا قصائدهم مع الكعبة جنبا إلى جنب في صدور أنصارهم وأعدائهم أجمعين..!

الشعراء.. ورائة الحياة، وتركة الموت.. أسماؤهم أفعال وكلماتهم آمال.. وفتواهم فتنة الآه في الخلق..!

إنهم مدينة الممرات الكثيرة.. زبد البحر وملوحة الغرقى وحفلات الأسماك الصغيرة وعهر النوارس البيضاء..!

الشعراء رسالة مجهولة كتبها أفلاطون وأرسل بها حمامة بيضاء خارج مدينته الفاضلة، فوقعت كوكبا استعمر الأرض...

والشاعر الحقيقي.. سيظل في كل العصور والأزمنة ينشد قصيدته الأجمل من بين تجلّيات الوجود أو حتى أنقاضه... في حين أن القصيدة الجادة لا تغادر زمنها إلا حينما تكتب غدها وتستوفي صمتها، وتستدلّ على حضورها باختلافها... فالشعر إرثٌ إنساني مستمر يتجدد ويتبدّل وتتغير ملامحه وتقنياته وأدواته بتجدّد الحياة وأدواتها.. فالارتهان إلى الماضي فيه استهلاكية لا تتسق مع كونه البهيّ ومراجعاته المستمرة للوجود وتفاعلاته، كذلك انقطاعه عن أمسه غربة فيه منه.. وبينهما يظل استسهاله برهنه إلى مهارات لغوية

أو غنائية تقلّل من نبوءته وتأخذه إلى مهارات لغوية مجرّدة لا تليق بـه...

القصيدة التي تعرفني ولا أعرفها تخرج من بين تجاويف الليل في السماء بين نجمة وأخرى.. من آثار الراحلين.. من العصافير التي غادرت طفولة شاعرها بعد أن أصاب ذاكرته الجفاف، من عيون أمي التي سئمت من الضوء.. من فقّاعة الشمس التي تمنحني ظلّي.. هكذا ببساطة لا يكون الشاعر إلا منكم ولا يتحدث إلا عنكم ولا يتخلّق إلا بكم.. ساعات شعره لا تشبهكم لكنها لا تأخذه بعيداً عنكم، وأحلامه لا تراوغكم لكنها تحاول أن تكون ما تحبون...

الشاعر ليس زعيمكم ولا خطيبكم ولا واعظكم ولا مرشدكم.. إنه هكذا بينكم يدهس الظلال مثلكم حينما تزدحم الشمس في الشوارع، ويتكئ على جدرانكم حينما تدفعه ظلاله إليها.. يصدّقكم حين يكذب، ويكذب كي يصدّقكم.. وهو لا يكون كل ذلك إلا وهو في حالة شعر وهي حالة لا تهب نفسها كثيراً له حينما لا يكون إلا آخر يشبهكم حيثما لا تشبهونه ويحبكم أكثر مما تحبونه... إنه ذلك المسكون بالذكرى والمنذور للتاريخ.. نبوءته حنين وبكاؤه شجن، وغناؤه مسافة بين ما مضى وما يكون.. يرتدي ثياب اليوم ثم يتعطّر بأمسه حينما يهم بالخروج إلى غده.. هكذا ليس إلا وطن ذاته حيثما يتسع لكم جميعاً، وشمس يومه حينما يفترض أن ظلاله غيمة، وخطوته سفر، ووقوفه انتظار ما لا يُنتظر حتى يعدنا بالمجيء.. وعندها يموت ليخلد فيكم...

***

ذلك هو الشاعر وتلك هي القصيدة التي لا أعرفها قبل أن ألتقيها، ولا أعرّف بها إلا بحضورها.. فهي شمس بلا سماء وليل بلا توقيت.. مدينةٌ من الملح والسكر يرمي الناس فيها نفايات أوجاعهم وتواريخهم على أرصفة الظلال..!

هكذا بلا هويّة ولا تاريخ ميلاد محدّد ولا حتى زمن لا تكون فيه.. هي شيء لا تعرفه قبل أن يكتمل ولا تستكشفه قبل أن تحياه ولا تصدّقه غواية إلا حينما يفضح هواجسك ويأخذك رغماً عنك إلى ما يريد هو لا ما تريد أنت.. تحضر في الغياب حتى حينما تغيب في الحضور.. تتمدّد بامتداد خارطة الإنسان على الأرض فهي تعبيره الأول، وإيماءة الوجود له حينما يخصّه بها.. إنها شجرة الذاكرة التي تجتمع غصونها على الخضرة والظلال معاً أيًّا كانت ثمرتها.. ثم لا يعتريها الذبول..!

عن الحزن والحب والشعر فليس قدراً أن يكون أول ما وصلنا من الشعر العربي الناضج دعوةً للبكاء.. هكذا كما يقول جدنا الأكبر امرئ القيس (قفا نبك...)، ولهذا لا مفرّ من الاعتراف من أن هناك علاقة وثيقة جدا بين الشعر والحزن.. الشعر كمؤثر والحزن كحالة قريبة دائماً من النفس الإنسانية التي تتعايش مع تفلّت الوقت من قبضتها ومع خطواتها التي لا تتوقف نحو الفناء.. هذا البعد النفسي الخفي جعل من الحزن أو الشجن مسرحاً خصباً دائماً للقصيدة، تلك التي تحتاج دائماً إلى حالة تمتزج فيها برؤاها فتدرك حقيقة فنائها، وعذابات عمرها ومواجع ذكرياتها وقلق غيبها وانتباهة الشعر إليها في كل هذه الحالات...

وإذا كان الحزن أدنى إلى الشعر دائماً فإن الحب مسرحه الأكبر.. فليس من بين شعراء الأرض من لم يعشق ليحزن، أو يحزن

لأنه يعشق. فالعاشق شاعر بذاته والشاعر عاشق بشاعريته ولا أعرف عن الحب إلا أنه حالة.. ولا أعرف عن الشعراء إلا عشاقاً للبحر والشمس والغيوم والمطر وفيروز، وآخر يقف دائماً على مرايا القصيدة.. الحب حالة شعرية.. والشعر حالة حب.. فعناصر هذا مكوّنات ذاك.. الحلم والخيال واللوعة والغيبوبة العقلية.. الشجن والشفافية، الفرح، الحزن، إنكار الذات.. كلها مجتمعة يمكننا توصيفها بحالة حب، وهي ذاتها مكونات اللحظة الشعرية.. فالحب حالة من الالتصاق مع الوجود بدعوى البحث فيه عن الآخر الذي تندغم فيه الذات، وتمتزج به الرؤيا، ويعانقه التذكّر، فهو يسكن الشمس في الصباح، والمطر في تردّده، والقصيدة في شهقتها، والعصافير في انتفاضة ريشها للغيم، والمدينة بساكنيها، والأغنيات بزمنها، والعطر بعرق التذكّر، والهواتف بنغماتها، والظلال بمرافقتها..

أما عن الكتابة كفعل كلي قد يفضي به الشعر أحياناً فهي فعل صمتٍ يأتي ولا يؤتى....

هكذا أداهن الوقت الكسول فيّ حينما لا أكتب.. لكن فمي يستهزئ بي ويحنق عليّ كلما تحدّثت صامتا على هيئة الكتابة.....

إنها الحروف التي تقوّس العمر ولا تتوقف عن النداء.. تخاتل الوقت وتستدرجه إليها بجمع تفاصيله في سلّة قصيدة أو في بيان موقف أو حتى في تشخيص حالة خاصة.. لا يهم فهي قادرة على أن تأخذه إليها متى أرادت وأن تشيح بوجهها عنه متى تمنّعت.. لا أجد أحد أبناء هذا العصر ممن يكتبون بمقدورهم اغتصاب جملةٍ محصّنة لمزاجٍ آخر أو إزجاء أخرى يمكن ولادتها في غير زمنها.. بعض المرات تداهمك فكرة مقال أو دهشة قصيدة أو حتى التقاطة شارع ثم

ترغمك قيادتك للسيارة على ترديدها كي لا تضيع في زحام الأبواق الطائشة والشوارع المهدورة لكنها تتمدّد فيك.. تسترخي وقد لا تصل إلى مستقرّك إلا وهي باهتة متفرّعة فقدت دهشة ولادتها جنيناً كتابياً..

الكتابة التي تشرب القهوة كما يقول أكثر الكتاب لا تشتهيها في كل ساعة ولا يمكنك أن ترغمها على تناولها حينما يكون مزاجها صائما عنك، إنها حالة لا تكون أجمل وأقدر إلا حينما تسترسل فيك حضورها وتقطف من عينيك صحوها ومن قراءاتك تلك الكلمات المسافرة في سطور ذاكرتك المعرفية ومن قدراتك تطويعها لها والامتثال لضجيجها وقلقها..

ومع كل هذه المنعة والترف المزاجي.. تحتمل الكتابة ما لا يحتمله النسيان أو يطمره التاريخ فهي أثر أخلد من حياة وأبقى من مصير منذ ولادتها الأولى.. تحتمل كل شيء تركه الإنسان في رحلته مع الوجود ذنوبه، أخطاءه، غروره، نرجسيته، تطرفه، اعتداله، حضارته، ولادته، موته.. كل شيء.. كل شيء قادرة هي على أن تحفظه في رحم الخلود وتبقيه في كنف التناقل مهما تباين الرواة أو تغشّاهم المس النسياني أو أخذهم الأهواء إلى التزوير.. ستبقى الكتابة وحدها وعاء الوجود وماء الحياة فيه!

..!

أيها الطفل الجميل. اكتب

إبراهيم عبد المجيد

الكتابة نوعان. كتابة اعتيادية كأن تكتب الواجب المدرسي، وتجيب على الأسئلة كما يقول الكتاب المقرّر عليك في المدرسة. وكتابة تخص صاحبها وحده. هذه الكتابة الخاصة ليست للكبار فقط. لماذا؟ لأنها رغبة في التعبير عن مشاعر لا ينتبه الناس لها. هذه المشاعر الجميلة حتى لو كانت غاضبة تجعل الكاتب يتخلص من حالات الألم وتجعله أيضا يشبع بالفرح. الكتابة مرآة لكنها ليست كالمرآة التي تنظر فيها فترى جسدك وثيابك. إنها مرآة ترى فيها روحك. الكتابة قوة لأنك تتغلب بها على ما يصيبك من الآخرين ولأنك أيضاً تحتفل بها بالجمال في الدنيا من حولك.

الرسائل ليست أخباراً ترسلها لكنها مشاعر تعبر الفضاء، والكتابة عما حولك يعرف الناس حين يروها أنهم على خطأ وأن هناك من يرى ما لم يروه فإذا كان قبيحاً ينتبهون إلى تغييره وإذا كان جميلاً سيرونه بعين أفضل هي عين الكاتب الذي هو أنت. الكتابة لا تختص بسن معيّن. فالكبير يكتب والصغير يمكن أن يكتب وأتمنى أن يكتب. الكبير يعرف لماذا يكتب والصغير يكتب لأنه فرحان أو حتى غير سعيد، وقد لا يكون له هدف من الكتابة غير أن يناجي ما يكتبه

ويأتمنه على سره. سبب فرحه أو ألمه. ولذلك كتابة الصغير تكـــون أجمل لأنها من المشاعر البريئة التي لم تتأثر بما حولها فلم تعرف الكذب ولا المحايلة. كتابة من البراءة مثل صوت طائر جميل.

إذا كتبت في سن مبكر ستكبر فيـــك النــــــزعة إلى المعرفـــة لتتساوى مع المشاعر وستسأل نفسك أسئلة من نوع لماذا وكيـــف؟ وينمو العقل أكثر مما ينمو بالحفظ والتلقين. الطفل الصغير أكبر ممـــا حوله رغم أن الكبار حوله، أهله والناس جميعاً، يريدونه أن يفعل ما يقولون له، وأن ينمو ويكبر كما يريدون له. وغالباً لا يستمعون إلى صوت مشاعره إلا قليلاً حين يتوفر لهم الوقت. يريدون أن يسمعوه يقول نعم. وإذا قال لا، يقولون له أنت مخطئ ويضربون لـــه أمثلـــة بالكبار وكيف نجحوا لأنهم استمعوا في صغرهم إلى من حولهم. لكن أنت أيها الطفل ترى في الدنيا ما لا يراه الكبار. فالكبار لا يتوقفون كثيراً عند الحيوانات والطيور. لكنك تراها فتسعد ولا بد أن تفكر في جمالها ويعجبك شكلها أو حركاتها.

لو كتبت عنها ستكون كتابتك عن روحها أكثر من شـــكلها. الأطفال هم الأقرب إلى أرواح هذه الحيوانات الجميلـــة والطيـــور. عقول الأطفال عقول بكر تميل إلى الأشياء في أصلها مثل الأشجار في الطبيعة ومثل الطيور في السماء ومثل القطط الأليفة. وأرواح الأطفال هي الوداعة التي لم تغيّر فيها مطالب الحيـــاة أي شـــيء بعـــد، ولا العلاقات مع الناس. عقلك أيها الطفل الجميل لا يعـــرف إلا الخـــير والجمال ويندهش أكثر من غيره مما يفعله الأشـــرار، وقـــد لا يجـــد الفرصة للكلام فتكون الكتابة تعبيراً عما لا يدركه الناس. ثم من منّا في طفولته أو صباه وجد الفرصة أن يقول كل شيء لمن حوله. هـــم كثيراً ما يكونون كما قلت منشغلين بمطالب الحياة.

إذن أيها الطفل الجميل اكتب فرحتك واكتب حزنك إذا أصابك وأتمنى أن لا يصيبك أبداً.

يمكن أن تلعب بحرية في البيت لكن اللعب في الملعب أجمل، واللعب في الحديقة أجمل وأجمل، أما الكتابة فهي أجمل الألعاب. الكتابة حرية وأعظم حرية للصغير والكبير لأنك تكون وحدك والورقة والقلم طوع يدك أو اللاب توب أو التابليت. وزيادة على ذلك فالصغار يرون البهجة أكثر مما يراها الكبار المتعبون دائماً من الحياة حولهم. هل رأيت رجلاً يبتسم حين يشاهد قطة ويقترب منها. أنتم تفعلون ذلك وتودون لو تكلمتم مع القطة وكذلك الطائر. حتى في البيت لو أن الأسرة اقتنت طائرا ووضعته في القفص فماذا يفعل الكبار؟ يقدمون له الطعام والماء وينصرفون. لكن الأطفال يقفون أو يجلسون ينظرون إليه ويتمنون لو ظلوا طول الوقت ينظرون إليه. لماذا؟ لأن روح الأطفال الجميلة أقرب إلى الطبيعة كما خلقها الله بكل مخلوقاتها. وهكذا إذا كتب الطفل عن شيء جميل ازداد جماله وازدادت بهجة الطفل وأضاف للكبار بهجة وإدراكاً لشيء ينشغلون عنه كثيراً. وما تكتبه لن يمر عليك ويمضي ولا تراه مرة أخرى.

ستراه فيما كتبت وستكون ذكراه رائعة. ومن يقرؤه من الكبار سيندهشون كيف حقاً لم ينتبهوا إلى ذلك. الكتابة التي تتيح للكبار أن يكون لهم دنيا أفضل مما حولهم، دنيا من خلق أيديهم فيها بشر ومشاهد من إبداعهم ستفعل ذلك للأطفال وأكثر. وسيكون إحساسك أيها الطفل الجميل أن هناك دنيا يمكن أن تكون لك وحدك شيئاً رائعاً وباعثاً على الثقة بالنفس والفرح أكثر مما هو عند الكبار. الكتّاب الكبار رغم أنهم يتألمون تكون الكتابة أيضاً عملهم وواجبهم

ما داموا جعلوها هدفاً. لكنك أيها الجميل ستكون أكبر من ذلك لأن الحرية عندك أكبر ولست مشغولاً إلا بما تكتب عنـــه. ثم إن الكتابـــة ستفتح لك أبواب القراءة، ويا لها من أبواب جميلة. أنت تكبر كل يوم وتريد أن ترى أكثر مما حولك لتكتب عنه. فستجد نفسك مـــدفوعاً بروح جميلة أن تقرأ ما كتبه الآخرون. القراءة ستضعك على طريـــق أعمق في الوقت الذي ينمو فيه العقل والإدراك. القراءة ستكون أيضـــاً باباً تعود منه إلى كتابة تتطور مع العمر والعقل فتأخـــذك الكتابـــة إلى عالم واسع من الأفكار تثريها من جديد القراءة. ستكون بين أعظـــم شيئين إسعاداً لقلب الإنسان. كتابة تفتح باب الفرح وقراءة تقتل كل هم يداهم الإنسان. الكتابة والقراءة جناحان للطـــيران في أفـــق مـــن السعادة والدهشة معاً. وكما تندهش وتحب الكتاب الكبار ســـتكون منهم فيما بعد وتتفوق عليهم لأنك عرفت طريـــق الكتابـــة مبكـــراً وعرفت أيضاً طريق الحرية قبل غيرك، وحين تتقدم لتكتب ما حولـــك وأنت تكبر وينضج العقل والفكر سيظل فيك دائماً شيء جميل حتى لو صار كل ما حولك مزعجاً. شيء يمشي معك منذ الصغر.

الفرحة الأولى بالكتابة ستتكرر دائماً. ستكتشف مهما تقدمت في العمر أنك تفرح بما تكتب فرح الأطفال وأن موســـيقى الفـــرح القديم تمشي معك. أجل فلقد كنت تفرح منذ وقت مبكر بما تكتب. ستكون فرحتك فيما بعد مضاعفة. سيمشي معك الإحساس بالجمال الذي رأيته قديماً حين كانت روحك ترى قبل عقلك وسيكون كـــل ما تكتبه جميلاً حتى لو كان عتاباً أو ألماً من صديق أو حبيب. وحتى لو تقدم العقل الذي نضج ليختار ماذا يكتب فلن يختار إلا ما يسعدك حين تكتبه وما يسعد الناس حين يقرأونه.

كتاب لي وحدي!

إبراهيم نصر الله

صديقي:

في أكتوبر عام 2011 كنت مدعوًّا مع عدد من الفنانين والكتّاب الفلسطينيين لاحتفالية بأدب فلسطين وفنونها في النرويج، وكم كان غريباً، أن بعضنا يكتب منذ ثلاثين سنة، لكنه لم يسبق أن التقى بزميلته الكاتبة الفلسطينية أو الفنان الفلسطيني من قبل، فكل منا يعيش في مكان ما، بعيد، لا يتيح اللقاء. وعندما فوجئت بموسيقي أحبه، كنت التقيته من قبل، كان قد مرَّ على لقائنا الأخير 23 عاماً!

كل منا جاء بجنسية مختلفة، فهذا أردني وذاك بريطاني، وآخر أمريكي، وآخر يحمل نصف جواز سفر، وآخر بوثيقة.

بعضنا وصل عبر أربع محطات، برية وجوية، وبعضنا لم يصل إلى أوسلو إلا بعد أن تسلّل عبر أنفاق غزة.

كل منا كان يحمل حكاية مختلفة، متقاطعة، أو متوازية، لكن الحكايات كلها، كانت تتجمع لتصبح حكاية واحدة، هي حكاية فلسطين.

حدّثتنا إحدى المشاركات، عن أول وفد شاركت فيه منذ

سنوات طويلة، كان وفداً للأطفال، يسافر إلى أمريكا، للمشاركة في مؤتمر للطفولة.

قالت، حدث وأن وصلنا وعدد من الوفود في وقت واحد.

سأل رجل الأمن الوفد الأول: أنتم من أين؟

- من مصر.

- تفضلوا. قال لهم. وأنتم؟

- نحن من كينيا. تفضلوا قال لهم. وأنتم؟

- نحن من أستراليا.

- تفضلوا. وأنتم؟

- قلنا من Palestine.

- من باكستان؟ سأل. فضحكنا.

- بل من Palestine.

في آخر الأمر، اختصر الحوار وقال: تفضلوا، وبقينا نضحك.

حين وصلت الفندق، تقول الصديقة القادمة إلى أوسلو، وجلست مع نفسي، بدأت أبكي لأن أحداً لم يعرفنا!

***

حين كنت صغيراً، في الخامسة من عمري، لم تكن المدارس قد بُنيت في مخيمات اللاجئين. لم يكن هناك سوى الخيام، وبالطبع، كانت غرفة الصفّ خيمة. لم تكن هناك مقاعد، وبالطبع، كان علينا أن نجلس على الأرض، وكان هناك شتاء، وبالطبع كان علينا أن نجلس على أرض طينية، ولم تكن هناك كتب، وبالطبع، كان على كل خمسة أو ستة طلاب الاشتراك في كتاب واحد.

في تلك الأيام البعيدة، حلمت أن يكون لي كتاب، كتـــاب لي وحدي. ولكن، كان عليّ أن أنتظر طويلاً ليكون لي هذا الكتـــاب. وبعد سنوات طويلة اهتديت إلى كتب من نوع آخـــر، وأحببتـــها، اشتريت النسخ الشعبية لروايات مثل: أحدب نوتردام، كوخ العـــم توم، الآمال الكبيرة، البؤساء، وآلام فارتر.

كلها أغرقتني بالدموع، ولكنها جعلتني أظن أن العالم كلّه يعيش مأساة تشبه مأساتنا! جعلتني أظن أن العالم كله حزين مثلنا! وأن هذا الوضع هو الوضع المشترك للبشرية! وهكذا بدأت أتعاطف مع كـــل شخصيات تلك الكتب، وأنا أحسّ أنني على استعداد لكي أخـــوض معركة من أجل كل واحدة من هذه الشخصيات، لو صـــدف وأن أصبحت من جيراننا!

ذات يوم قرّرت أن أكتب كتابـــي ليعرفنا الناس البعيدون كما عرفتهم من كتبهم.

الآن أزور بلاداً كثيرة، لم أتوقّع يوماً أن أزورها، أزورهـــا لأني أصبحت كاتباً معروفاً!! ولكني ما زلت أتساءل هل الطائرات هـــي التي أوصلتني إلى هذه البلدان أم الكتب التي قرأها ذات يـــوم بعيـــد، الكتب التي جعلتني كاتباً وحملتني مرتين إلى مدن العالم، مرة في الخيال ومرة في الواقع.

ما زلت أقرأ كما لو أنني ذلك الطفل قبل أكثر من أربعين عاماً، وأحسّ بالحاجة نفسها إلى كتب جديدة، لأني بحاجة إلى مدن جديدة أزورها وأناس رائعين أعرفهم، بحاجة لأن أعرف أكثر كـــل مدينـــة أصل إليها، كل مدينة تنتظرني، كل مدينة زالت وكل مدينة ستولد، لأنني على يقين أنني لست هنا فقط في المكان الذي أنا فيه، بل إنـــني هناك أيضاً على الضفاف الأخرى لهذا العالم.

هل خطر ببالك صديقي أنني أعرفك وأنك تعيش معي قبل أن تولد وبعد أن ولدت، منذ زمن بعيد؟

***

بالمعرفة كبرت وتفتحت عيناي، وبها اكتشفت: ما دام هناك مظلوم فهناك ظالم، وما دام هناك جائع فهناك متخم، وما دام هناك بلد واقع تحت الاحتلال، فهناك قوة احتلال، وما دام هناك مهجَّر، فهناك وطن خلفه.

لم تكن تلك الكتب وحدها، هي التي فتَّحت عينيّ، بل الواقع الذي أعيش أيضاً.

كنا وأسرتي، وكل شعبي، في خمسينيات القرن الماضي، نعيش في نقطة الصفر، منتزعين من كل ما كان لنا: البيت والحقل والشجرة والشارع والنهر والبحر.. منتزعين من كل تلك الأشياء الطيّبة التي تُسمّى: الوطن.

حين أستدير لأنظر خلفي اليوم، أكتشف أنني ولدت بعد ست سنوات من تهجير أبي وأمي من وطنهما، وحينما كنت في الثانية، حدثت مذبحة كفر قاسم، وحرب 1956، وفي الثالثة عشرة حرب حزيران التي كانت سبباً في احتلال ما بقي من أرض فلسطين، ولما كنت في السادسة عشرة، وقعت حرب أيلول الأسود، فتهدّم بيتنا وكنت على وشك أن أكون واحداً من القتلى...

بعد ذلك عشت أكثر من سبع حروب وعشرات المجازر!

ذات يوم قلت للجمهور الإيطالي: كنت أتمنّى أن أؤرخ حياتي بقصص فتيات أحببتهن، لا بالحروب التي كانت تشنّ علينا بمعدل

مرة كل ست سنوات، فتأخذ أطفالنا للموت، بدل أن نمضي بهم فرحين إلى اليوم الأول من السنة الأولى إلى مدارسهم.

حين سافرت للعمل لأول مرة، لإعانة أهلي، مضيت إلى الصحراء في الجزيرة العربية، يومها عبأت حقيبتي بالكتب، وهناك رأيت أي بؤس يعيشه الناس في تلك القرى البعيدة، حيث لا ماء ولا كهرباء ولا شوارع؛ لا شيء سوى غرف مدرسية من القش وطلاب يجلسون على الأرض، وملاريا وسلّ يحصدان أرواح طلبتي وزملائي المدرّسين كما يشتهيان!

أي كرة أرضية هذه؟!

كان عليّ أن أستدير لأبحث عن ذلك الوطن بقوة أكبر، فبدأت بكتابة روايتي الأولى، لا عن فلسطين، بل عن حياة هؤلاء المعذبين في الأرض.

أدركت عذابات الناس ففهمت عذابي أكثر.

عدت إلى المخيم ثانية لأواجه غربتي وأقاتلها.

في الكتابة اتسع العالم، وفي القراءة تعدد، لكن القيم الكبرى التي قاتل البشر من أجلها، كانت موجودة، لنقاتل من أجلها من جديد. وشيئاً فشيئاً اكتشفت أنك لن تقدّم شيئاً لوطنك، إلا إذا قدّمت شيئاً جميلاً للعالم، رواية جميلة، قصيدة جميلة، موسيقى جميلة...

وأدركت: أنك ستكون إلى جانب وطنك بصورة أعمق، إذا ما وقفت مع كل قضية عادلة حيثما كانت في هذا العالم. إلى أن وصلت إلى نتيجة تقول: إننا نقف مع فلسطين، لا لأننا فلسطينيون، أو عرب، بل لأن فلسطين امتحان يومي لضمير العالم، ولو كانت هذه القضية في آخر بقعة في الأرض، ولم تكن فلسطينياً، لكان عليك

أن تكون مدافعاً عنها. وتبيّن لي أن جوازات السفر ليست هي التي تحدد جنسيتنا، بل القضايا التي نتبناها وندافع عنها هي التي تحدد جنسيتنا، وأن أفقر الهويات، هي الهوية التي نرثها بحكم الولادة.

منذ عدة أعوام، أقيم في تونس أسبوع بعنوان (فلسطين في قلب المغرب العربي) وكما في أسبوع النرويج، التقيت هناك فلسطينيين ألتقيهم لأول مرة: منتج مسلسلات وأفلام فلسطيني يحمل الجنسية الإسبانية، موسيقى فلسطيني يحمل الجنسية السويسرية، سينمائي يحمل الجنسية الفرنسية، ومتسلقة جبال رائعة، وصلت إلى قمة الهملايا عام 2011، ما زالت تبحث عن جنسية يمكن أن تُمنح لها...

لقد استطاع الاحتلال أن يُلقي بنا بعيداً عن أوطاننا، في كل أرض، وفي كل بلد من بلاد العالم، لكننا، وبعد سبع وستين سنة من فقداننا لكل ما كنا نملكه، لم نزل نملك الأمل، ولم نزل قادرين على التقدم دون كلل لكي نضيف شيئاً جديداً لهذا العالم، وأن نكون جزءاً من جماله، وليس من مآسي شعوبه في غير مكان على هذا الكوكب الصغير.

كان أبي فلاحاً، وكانت تربطه بالأرض علاقة عميقة، ويتعامل مع كل شيء فيها باعتباره كائناً حيًّا.

حين كنت صغيراً، رأيته يزرع شتلة زيتون، وبعد أسابيع، رأيت نوّار الزيتون على ذلك الغصن الصغير، فقلت له بفرح: لقد نوّر، سنقطف زيتوناً منه هذا العام!

فقال لي: لا، لن نقطف زيتوناً.

فسألته: لماذا؟ فقال: هذا الغصن يحلم!

فسألته: كيف لغصن الزيتون أن يحلم؟

فقال: إنه يظن أنه لم يُقطع، أنه لم يزل جزءاً من الزيتونة الكبيرة أمّه. ولهذا يُزهر.

***

زمن طويل مرّ منذ ذلك الزمان، ولم نزل نحلم، لم نزل نزهر، ولم تزل أمنا الزيتونة الكبيرة تعلّمنا الكثير.

تعلّمنا أن نكون بشراً أولاً وأخيراً، نعيش عذاباتنا وعذابات العالم، نتفاعل مع هذا العالم ونعيش بجماله الذي لا نتنازل عنه، ونحاول أن نعطيه بعضاً من جمالنا ما استطعنا، لأننا اكتشفنا أننا لحسن الحظ بشر، ولسنا مجرد بضائع عابرة للحدود، رغم كل شيء، رغم كل الحروب والمجازر والعذاب الذي يتواصل حتى اليوم.

***

الآن، ربما يسافر أحد أطفالنا، إلى مكان ما، ويعاني كثيراً في المطارات بعد أن يسأله ضابط المطار: أنت من أين؟ ويجيب: إنني من Palestine.

لكن الضابط لن يسأله ثانية باستغراب: أنت من أين؟!

فقد قدّمنا الكثير: قصائد وروايات وموسيقى وشهداء أيضاً، كي لا ننسى، أو ينسى العالم، هذا الاسم أبداً.

رسالة لمن أريده قارئاً

أمير تاج السر

عزيزي خالد:

أذكر ذلك اليوم من العام الماضي، حين أتيت لزيارتي مع والدك في إحدى الأمسيات.

كان في عقلك الصغير سؤال ربما تظنه طفولياً بحكم سنك، وأنك ما زلت في بداية طريق الحياة، تتلمسها حتى الآن بمعاونة أسرتك، لكني لم أظنه كذلك أبداً. كان سؤالاً مفرحاً حقاً، مفرحاً لي، أكثر من ما كان لو سأله شخص ناضج، حين يسأل طفل في عمرك، كاتباً شاهد صورته مصادفة في جريدة ملقاة بإهمال في المنزل، أو انتبه إلى والده يقرأ كتاباً من تأليفه، من دون أن يعرف ماذا يحوي هذا الكتاب، فقط إن الذي ألّفه يسمى كاتباً، وأنت تريد أن تعرف، كيف أصبح كذلك.

سألتني ببساطة شديدة، وأنت تعبث بأزرار هاتف حقيقي محمول، كنت تملكه، وبجانبك جهاز "آي باد" متطور، يخصك أيضاً وتلهو بألعابه الإلكترونية، بينما عيناك ثابتتان في عيني: كيف أصبحت كاتباً يا عمي؟

لقد أفرحني سؤالك كما قلت، وأجبتك ببساطة أشد من بساطتك: كنت قارئاً متعثراً في البداية، ثم أصبحت قارئاً عاشقاً،

وانتهيت كاتباً، حين أحسست بأن المعرفة التي شربتها من الكتب، يمكن أن تنتج معرفة تخصني، وأستطيع أن أشارك بها الآخرين.

أنت في الثامنة من العمر يا خالد، وأنا تجاوزت الخمسين، بيننا مسافة كبيرة في العمر، أجيال وأجيال، لكن ذلك لم يمنعني من تبسيط الحكاية لتفهمها، ويفهمها أبناء جيلك، ممن وصلوا إلى الدنيا في زمن سيطرت فيه التقنيات الحديثة على العالم، لدرجة أنك تحمل هاتفاً محمولاً بلا ضرورة، وجهازاً إلكترونياً، بلا ضرورة أيضاً، وأعلم يقيناً أنك تملك ألعاباً بلا حصر، وتستطيع أن تدخل شبكة الإنترنت، وتتواصل مع آخرين من سنك وغير سنك. لكنك قد لا تفكر في القراءة بمعانيها العظيمة، قد لا تفكر في اقتناء كتاب يمدّك بالمعرفة الحقيقية، ويشعل خيالك، وحتى لو اقتنيته قد لا تقضي معه سوى بضع دقائق، ثم تعود إلى عالمك الذي لم تصغه أنت حقيقة، لكن صاغته المتغيرات الحديثة، لك ولأبناء جيلك كله.

سأحكي لك عن زماننا يا خالد، حين كانت القراءة هي علف الذهن فعلاً، وكنا نطاردها ولا نمنحها أي فرصة لتطاردنا هي، كنا جوعى للمعرفة، واستمر معنا الجوع حتى كبرنا، وما زلنا جوعى إلى الآن، نبحث عن كل ما يمكن أن يشبع الذهن ولا يشبع.

أنا نشأت في بيت كان يحب القراءة، منذ طفولتي الباكرة وعيني تفتحت على الكتب بمختلف أحجامها ومواضيعها، مرصوصة بدقة، في مكتبة من الخشب الجيد، وفي صالون البيت الرئيسي. كنت أشاهد والدي يفتح تلك الخزانة الخشبية، ينتقي كتاباً، ويجلس ساعات يطالعه بلا كلل، وبدافع الفضول كنت أفتحها أيضاً في أوقات مختلفة، أطالع الكتب وألمسها، لا أفهم شيئاً، وأحسها عالماً

سحرياً، تمنيت أن أفك طلاسمه، لكن الوقت كان مبكراً جداً.

أعلم أن لديكم مكتبة، وأن والدك يقرأ بانتظام، فهل عثرت على فرصة أو فضول لتفعل ما كنت أفعله أنا؟ لا أعرف. ربما كنت تفعل، وربما لم تفعل قط، لأن الفضول في جيلك مسروق من الكتب، وموجّه لعالم آخر لم يكن موجوداً في زماننا.

حين وصلت إلى سنك يا خالد، اكتشف والدي أنني نهلت شيئاً من مكتبته، أسمعته ذات يوم قصيدة للبارودي حفظتها بمشقة، لكن بمتعة، حكيت له جزءاً من السيرة الهلالية، وكانت موجودة في طبعة قديمة. كان يوماً مختلفاً بالتأكيد، اليوم الذي احتضن فيه والدي لهفتي للمعرفة، وأصبحت القراءة منذ ذلك اليوم، شغفاً أسبوعياً كما سأحكي لك.

كنا نقيم في مدينة بورسودان على ساحل البحر الأحمر، وكان يوجد صاحب مكتبة مثقف، وعاشق للقراءة أيضاً، اسمه رفعت، كان صديقاً لوالدي، فأخذني إليه، وفي تلك الساعة التي أمضيناها معه، تمّ الترتيب لأن يصل إلى بيتنا كتاب أسبوعياً، يحضره رفعت بنفسه، وقد حدث. كان يأتي عصر الثلاثاء كما أذكر، يلقي بالكتاب من أعلى حائط البيت، ونتلقفه أنا وإخوتي الذين دخلوا سكة القراءة أيضاً، وعشقوها، وكانت لحظات من الترقب والقلق، في انتظار أن يقرّر والدي، من يقرأ الكتاب أولاً، حين نحمله إليه؟

تلك هي أيام القراءة الأولى يا خالد، القراءة والمعرفة، وقد كانت كتباً رفعت في معظمها كتباً في الخيال، تناسب تلك السن التي هي سنك الآن، فيها قصص عن الحيوانات، وكيف تعيش وترتب حياتها، قصص مأخوذة من القرآن الكريم، ومبسطة ليفهمها الصغار،

قصص الجدات الخرافية عن السحر والغيلان والأميرات المنتظـــرات لفرسان الأحلام، قصص من كتاب كليلة ودمنة لبيدبا، وأشياء مـــن التراث وحكايات الأبطال الشجعان حين يواجهون المخاطر. وأقول لك إن المتعة التي كانت تحدث لنا في تلك الفترة، لم تكن تعادلها أي متعة، ولو جرّبتها لعلمت أنها أعظم من العبث بأزرار الهاتف المحمول والكي بورد، ودخول عالم يستهلك طاقة الذهن من دون أن يغذيه. ما أجمل أن تعرف كل ذلك، وتنتشي بمعرفتك، وحين تتحـــدث في المدرسة وسط زملائك التلاميذ، تتحدث بثقة، وتجرّ بعضــــهم مـــن الذين لم يكونوا يهتمون بالقراءة، إلى تلك السكة البديعة.

لكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟

لا يا خالد، الذي يبدأ طريقاً غامضة، يكتشف جـــزءاً منـــها، يسعى لإكمالها واكتشاف ما خفي عنه كله. لقد أسســـتنا كتـــب رفعت، وأصبحنا في سن أكبر، نسعى للمكتبات بأنفســـنا لنحصـــل على المعرفة الأكبر، وجاء بعد ذلك دور عكاشة الذي كـــان يملـــك مكتبة صغيرة، عبارة عن كشك من الخشب، أمام حديقة البلديـــة، وهي قريبة من بيتنا. وأذكر حين وقفت أمامه وأنا في الصف الرابـــع الابتدائي، أخذت أقلّب كتب المنفلوطي والعقاد وطه حسين، وغيرها من الكتب التي أراها لأول مرة، وأصبت بما يشبه الهستيريا. أردت أن آخذ كل تلك الكتب، أقرأها كلها في الوقت نفسه، وكان عكاشـــة مثقفاً أيضاً، وعنده ولد في سني يحضره معه، ويلزمه بـــالقراءة وهـــو جالس بجانبه في الكشك.

لقد بدأت مرحلة أمتع كثيراً حين كان عكاشة يعيرني الكتب. كتاباً كل أسبوع أردّه حين أفرغ منه لآخذ آخر، وأحياناً أوفر مـــن

مصروف مدرسي لأقتني من كتبه ما أريده أن يبقى معي على الدوام. وهكذا استمر الحال، قراءة إثر قراءة، ومعرفة جديدة إثر معرفة قديمة، إلى أن أصبح العشق أبدياً.

أريدك أن تجرِّب ما جرّبته يا خالد. أن تتسلل إلى رفوف الكتب في مكتبة والدك، وتحاول أن تبدأ قصة العشق معها، وسترى ماذا سيحدث لك في النهاية، حين تستجيب الكتب لمغازلة عينيك وتعشقك، ساعتها لن يفرّق بينك وبينها أي شيء.

أعلم أن الأمر صعب هذه الأيام، ولتفعل عليك أن تنسى أن التكنولوجيا الحديثة، تشدّك من طرف آخر لتغرقك فيها، عليك أن أنسى أن هناك هواتف تنقل العبث والدردشات التي بلا معنى، وألعاباً إلكترونية للتسلية، لا لاكتساب المعرفة، نحن نريدكم جيلاً لا أريد أن أقول شبيهاً بنا لأن تكرار الأجيال بالسمات نفسها لا يحدث، ولكن جيلاً يواكب حداثة الدنيا وفي الوقت نفسه، يمتلك سلاح المعرفة الأجدى، وهو القراءة.

في بلاد العجائب.. دون "أليس"!!

أميرة شاكر صليبيخ

دعاء

هب لي يا الله رئة ثالثة أضعها داخل صدورهم التي ضاقت على واقعهم.. هبني يا الله الكتابة!!

إلى ذلك..
الصغير.. الذي كبّرهُ الهم
اليتيم.. الذي كفله الحزن
المشرد.. الذي آواه القلق
الجائع.. الذي أطعمه الصبر
الخائف.. الذي طمأنه الدمع
الفقير.. الذي أغناه الذل
المنسي.. الذي يتذكره الوجع
والوحيد.. الذي يقف مُجبراً أمام فوهة المجهول!

إليك أكتب إمتناناً لأنني منذ إعتناق اللغة وأنا أختزل الكـــلام لمثل هذا اليوم..

في البداية يجب أن أقول..

آسفة لأنه لا باب لك أطرقه فتجيب..

آسفة لصدرك الذي تقرعه الريح لأنك دون ملابس..

آسفة لأنه لم يعد لك عنوان سوى الخرائب..

لكنني أأسف أكثر لنا نحن الذين نحمل العار نيابة عنك..

عليّ أن أعترف أن طعم قهوة "اللاتيه" المرّة في فمي، لا يشبه شيئاً من طعم المرار الذي في فمك، وإنني على الرغم من مرارتي على العالم المحيط بي، إلا أن الأمر مختلف كلياً عمن يعيش بداخل هذا العالم.

فأنا من زاويتي.. ألتقط لأوجاعك صورة أتباهى بجودتها أمام أصدقائي، في حين أنك وأنت داخل الإطار تحاول كسره، والخروج إلى عالم مغاير تماماً.

أعترف، لقد ألْهتنا أنانيتنا عن مسح دموعك، وشغلتنا الحياة بآخرين غيرك، وأننا عندما أغلقنا شاشات التلفاز سبقتنا ضمائرنا إلى النوم.. ونسيناكم كما نسينا وجبة عشاء الأمس.. هكذا ببساطة..!!

اعلم أيها الصغير.. أن الحياة ليست منصفة، ولأكون منصفة معها أنا بدوري سأقول بأنه في أفضل الحالات ستأتيك عدالتها متأخرة.. وإنه عليك منذ اليوم وحتى ذلك الوقت أن تكتب!!

اكتب.. اكتب.. اكتب..

حتى تُلهيك الكتابة من أن تموت مبكراً بعد الذي شهدته وعاصرته.

فكلما حاول العالم أن يتجاهل أوجاعك، اعلم أن آثار الجريمة ستكون أكثر وضوحاً، وأن من يملك قلماً يصبح هو سيد الساحة!

دعني أخبرك بأمر آخر..

لقد أنقذتني الكتابة ذات يوم من الموت حزناً..

لقد كنت مثلك.. أعاني قسوة العالم غير المبررة، وتكالب الظروف على قلبي دون رحمة.. كدت أن أغرق حزناً لو لم أجد في الكتابة بعض الأكسجين..

كان الورق في تلك المرحلة البائسة من حياتي ضماداً ضد نزف حقيقة أن أمي لم تعد من الأحياء من بعد ذلك اليوم..

لم أجد في عزاء الجميع ما يعينني على تجاوز هذه المفاجأة المفجعة، لكنني وجدت أن صدر الورق هو المكان الأكثر أماناً ودفئاً - على هذه الأرض - بعد صدر أمي.

ففي الوقت الذي كنت أرى فيه اتساع الجرح أكبر من العالم، كان القلم يرتق الجراح كلما تمادت في النزف، وحاولت الثورة على الشفاء.

وفي الوقت الذي كنت أرى فيه الأصدقاء يتساقطون بعد سقوط أقنعتهم ومبادئهم أمام عيني.. كانت الورقة (قناعي) الذي يستر وجه صدمتي أمامهم!

وفي الوقت الذي كانت فيه ركبتاي تتسابقان يأساً للوصول إلى الأرض.. كانت الكتابة عكازي الذي أتوكأ عليه فتبقيني واقفة باستواء تام!

ولقد نجوت.. بالكتابة.... وكان الأمر أشبه بالسحر!

الكتابة كانت طوق نجاتي.. فجرّب أن تتشبث بها مثلي.

تذكّر أيها الصغير، إنك لست مسؤولاً عن الفوضى التي تـــدور حولك ولكنك مسؤول عن منعها من الامتداد إلى داخلك.. فالكتابة هي إحدى الدروع المنيعة ضد تسلل هذا الضرر.

ستدرك مع الوقت مدى القوة التي يملكها القلم الذي في يمينك عندما ترى كيف يمكن لكلمة واحدة أن تقلـــب مـــوازين العـــالم، وتسحب البساط من تحت أقدام الآخرين!

الدخول إلى عالم الكتابة والأحرف والتجول بـــين الكلمـــات سيمنحك متعة تشبه المتعة التي شعرت بها "أليس" وهي تبدأ رحلتها مع السيد أرنب في بلاد العجائب.

فالكلمة هي "الأرنب" الذي أخذها في رحلتها.. لكن "أليس" لم تعد الآن هنا.. وبقيت الكلمة وحدها بالانتظار.. فخـــذ بيـــدها وابدأ رحلتك.. واكتُب.. اكتب.. اكتب.

اكتب..

لأن الكتابة جيدة للصحة.. لكنها رغم ذلك لن تزيل التجاعيد التي خطّها الزمن على وجهك!

اكتب.. لأن الكتابة صلاة وموسيقى..

اكتب.. حتى تكون الحياة المريرة أسهل.. بجرّة قلم

اكتب.. حتى تطيل عمر بقائك على الأرض

اكتب.. حتى تتذكّر أنك لا زلت إنساناً

اكتب.. حتى تترك بصمة ووصمة على جبين العـــالم الغـــارق في شخيره

اكتب.. حتى توثق التاريخ المتبختر بعهر أمام عينيك

اكتب.. حتى تزُجي الوقت بسرعة أكبر

اكتب.. حتى ترصد الواقع اللئيم بعين أصابعك
اكتب.. حتى لا تكون عدداً فائضاً من الإحصائيات العقيمة
اكتب.. تهدهد الأفكار المضطربة والمضطرمة في داخلك
اكتب.. حتى تنام خفيفاً دون أن يبات القلق في فراشك معك
اكتب.. حتى تحرر عقلك من الكلمات الحبيسة بعيداً عن النور
اكتب.. حتى لا تجعل رأسك ساحة حرب شرسة بين فكـــرة وأخرى
اكتب.. حتى تمارس رياضة التفكير عوضاً عن الرياضة الجسدية المرهقة لجسمك الضئيل
اكتب.. حتى توقف الأفكار اللاهثة في داخلك وتدعها تستريح على الأسطر
اكتب.. حتى لا تنام الشجاعة – التي في قلبك – مطولاً
اكتب.. حتى لا تلتهمك دوامة الصمت عن الحق.. كالآخرين
اكتب.. حتى تكفل الحكايات الحزينة
اكتب.. حتى تهتدي إلى النور
اكتب.. حتى تملأ الفراغ الهائل في الكون
اكتب.. لأن الكتابة تغنيك في بعض المواقف عن الطعام الـــذي لم تتذوّقه منذ أيام
اكتب.. حتى تواجه مخاوفك الكبرى ومن ثم تطردها برفـــق مـــن قلبك
اكتب.. حتى لا تدع المرار يبقى طويلاً في داخلـــك فيبـــدأ في تناولك على مهل
اكتب.. لأن لك الحق في الكلام، ولك حرية الرأي فلا تسلب

نفسك هذا الحق بعدم ممارستك له!

اكتب.. حتى تنسى آلامك ويتذكرها الآخرون نيابة عنك

أكتب.. فجميعنا سيموت ذات يوم لكن تـــذكّر الكتّـــاب لا يموتون بسهولة..

بل الكتّاب لا يموتون!

فالكتابة تخلدهم!

أيها الصغير..

ليس هناك أسهل من أن يتحول الإنسان إلى وغد، طالما كانت حوله العديد من الأسباب التي تدعوه إلى ذلك وبقوة، لكن من يملك قلماً ومبدأ لا يعود العالم في نظره كما كان!

الكتابة لا تعني بالضرورة أن تبتكر الأحداث بل أن تتـــذكّرها وتؤرخها..

الكتابة تستوجب الصدق النابع من الاســـتماع إلى صـــوتك الداخلي، مكتوم الأنين!

وعندما تكتب نذكر، أن الكلمات التي تمشي بريبة السارق بين أصابعك.. لن يقرأها أحد، بل ستبقى في الظلام!

أيها الطفل الصغير..

لا تدفن الأفكار التي تخافها.. لا تدع النسيان يأكلها بقلق، بل إرمها كالنرد على سطح البياض ومن يدري لعلك تصادف الحـــظ بعدها.

لا تترك أضلعك تحمل عبء الكلمـــات لوحـــدها، شـــاركها الورق، فوحده الذي خُلق لحمل هذا الثقل وليس جنبات أضلعك.

لا تنظر إلى المرآة عندما تكتب.. بل انظـــر إلى الـــداخل، إلى

الوجه الذي لا يراه أحد سواك.

لا تترك الأيام تمر متبخترة من أمامك كأنك لست معنياً بها، بل خذ قلمك وأوقفها في منتصف الطريق، كن مع الرَكب ولا تتخلف عنه.

يا صغيري..

عندما تتخذ القلم صديقاً.. ستجد كيف أن رفقته تمنحك السلام والخفة والطمأنينة..

في النهاية سيقول لك القلم ما تريد أنت أن تقوله لنفسك، ولن تضطر لسماع ترّهات العالم الأحمق من حولك.

سيكون القلم حاستك السادسة، وإصبعك الحادي عشر، وسلاحك عند اللزوم. وكلما أَشهرَ أحدهم شتيمة في وجهك، إرفع له القلم.. فما نفع الرصاص وأقلام الرصاص موجودة!!

صغيري..

أنت لا تحتاج للسلطة حتى تكتسب القوة

لا تحتاج للمال حتى تحظى بالاحترام

لا تحتاج لأكثر من "مبدأ" تؤمن به حتى تملك كل ذلك.

قد لا تكون قوياً لكنك أيضاً ليس بضعيف.. لقد فاتهم أن يخبروك ذلك، وربما تعمّدوا ذلك عن قصد!

فالخوف جلّ الخوف ليس من فعل الكتابة وحدها، بل من المبدأ الذي يسبح في عروق الكلمة.

لذا اكتب.. لهم.. وعنهم.. وعنك..

وعندما تقف وجهاً لوجه مع الكلمة قل لها دون تردد..

لقد تشرّفتِ بلقائي أخيراً...

من أجل قطعة الحلوى الأخيرة.. اكتب

إيمان اليوسف

"هل تذكرين قطعة الحلوى الحمراء الأخيرة تلك؟" رفعتُ قلمي عن النقطة حين بدت كبيرة. ضخمة السواد كقطة تلتهم باستفهامها الأرعن... ولا تكتفي، كل الاحتمالات السعيدة. سأحدثكِ كما وعدتُ يومها وها أنا أفعل، وها أنتِ تذكرين. عندما تسحبين عقدة الشريطة الزرقاء أسفل ضفيرتكِ الطويلة ثم تحرّكين ياقتكِ الضيقة على شكل طرفي مثلثين مجتمعين - ذوا زاوية قائمة كما كانت تردد الآنسة تسنيم - أعرف أنكِ تذكرين.

"سيحيط بها النمل أو تكون وجبة شهية للصراصير قبل أن يصلوا إليها" كان يزعجكِ بصراخه وكانت تخيفكِ الفكرة. أن نخسر الرهان على أحلامنا الغضّة، أن تخوننا وعودنا التي صحنا بها في وجه الشمس ونحن نرمي "سن الحمار"، أن نعيش الانتظار والترقب لأول مرة... ولكل شيء يا صغيرتي أول مرة حتى خيبات الأمل.

"ماما" تملس على شعركِ بحنان تتعمد أن يلامس خديكِ النديين "عبودي دائماً مريض. لا تنزعجي منه". كيف تختلط يا ترى الشفقة عليهم بالتسامح أمام كل تجاوزاتهم؟ يومها لطخت بكرة الآيس كريم الملونة وجه الأرض الرملية "ستأكلها الديدان قبل أن

تستطيع تذوق إحداها!" التفت وقد تطايرت أطراف تنورتك حولك بشكل مربك وبدت كما شتيمة نابية قررت إنهاء كلماتكِ بها "يا... عبد الله!".

"هل تذكرين كم ركضتِ؟" ربما لو جريتُ بالسرعة الكافية، أطير... أو قد أنسى ألم أصابعي التي اعتذرت إلى لوح الفصل الأخضر الطويل اليوم أكثر من مئة مرة... ولو، أنا لست آسفة. كتبتها مرة واحدة على حائط سور المدرسة.

"هل تذكرين رأسكِ على معصميكِ المتعاكسين. جسدكِ الصغير على الحشائش ووجهكِ الأقرب إلى السماء؟" ظلت الشمس بين الغيمات تأبى إلا الاختباء ككل الكلمات في حنجرتكِ الطرية وظلت الغيمات تفضح همساتها، فتارة تبتعد على شكل قارب وأخرى لامعة كالهدايا المغلّفة ثم سرب من الأسماك الشقية ومظلة وشمعة عريضة مزخرفة كالتي تمنعنا ماما من الاقتراب منها... ومَرت غيمات أخرى دون أشكال. أليس ذلك أفضل؟ أعني، إن كان علينا رسم أحلامنا أو انكساراتنا.. إن كنا سنرسم الألم مثلاً، ألن يكون بلا شكل تماماً كهيكل لوحة مشوه، كتخطيط يعلم أنه أبداً سيقبع بين قضبان الزوايا؟

الحقيقة يا عزيزتي أن أجمل الأشياء بلا وجوه كما أن أصدق الكلمات تلك التي لن تقال... وحدها الأكاذيب يُتحدث بها بكل وقاحة سافرة كانعكاسات شخوصٍ في مرآة. يومها، كانت السماء تلعب معكِ، أم هل نحن في النهاية سوى ارتجالاتٍ لألوان الأفق؟ يومها بدت ضجة الطيور المهاجرة أنغاماً غاضبة على الحياة، متمردة على البقاء. تخنقها الأسئلة أكثر من الياقات البيضاء بأزرارها البلاستيكية والجوارب الطويلة ومشابك الشعر. الفرق أننا نتخلص

منهم في وقت من الأوقات بينما لا نملك أن نستأصلها. تولد معنا بريئة وتنمو معنا فضولاً تلتمع له أعيننا أمام كؤوس الحليب الفارغة وتحف الكريستال التي نقف من أجلها على رؤوس الأصابع.

نسيم المساء يتسلل هادئاً ثم ما يلبث أن يصفع بارداً وجهكِ. تنحني الأغصان له لكن تبقى الأشجار واقفة. "حسناً. هل تذكرين؟... لا بالطبع لن تذكري هذا. لِمَ لم تركبي دراجتكِ ذات السلة المنقطة اليوم كبقية الأيام؟ لِمَ لم تكملي تلوين الصفحات التي ينهي فيها الأرنب سباقاته؟ لِمَ لم تطالبي بسيارة عبد الله الجديدة كتسوية لعين دميتكِ المفقوءة؟... صغيرتي، لِمَ كبرتِ يومها؟".

يا للذاكرة التي تلعب لعبتها بدهاء! تهدهد بين ذراعيها كل تفاصيل الطفولة وفي كسرات ثوبها العظيم كخيمة، المرقّع بالألوان المتناقضة كعرافة غجرية، البالي كحكايا الكبار تجتر في مجاعتها كل شيء آخر... عداه. نحن لا نسأل أنفسنا متى كبرنا... نحن لا نتذكر متى كبرنا.

"هل تذكرين قطعة الحلوى الحمراء تلك؟" جاءت في الكيس الأخير، الأخيرة. يومها رفضتِ أن تأكلي من يد أمي... ارتديتِ ملابسكِ وحيدة وسرحتِ شعركِ وحيدة ورحلت مشياً لتلعبي وحيدة وعندما عدتِ بدوتِ كالطاووس "لقد لعبت معي السماء... الشمس والغيمات!".

لم أجرحكِ وأنا التي تعرف. كانت السماء بشمسها وغيماتها معي طوال النهار وليست معكِ. "والعصافير؟ هل أكلت قطعة الحلوى؟" سألكِ عبودي بتحدٍ. عبد الله دائماً مريض. صوته مثل أوزة مجروحة. رأسه صغير وملامحه صفراء باهتة. عبود كان يختفي... يذوب كما

كانت قطعة الحلوى الحمراء التي مَنعتِهِ عنها. بدت كخرزة قوية زهرية مدفونة في راحتكِ المتعرقة الحمراء اليوم على الحشائش.

"هل تذكرين؟ لم تقترب منها الطيور. لم تأكلها وتصبح صديقتكِ الجديدة كما ظننتِ". ترى، متى كبرتِ؟ متى ظننتِ أنكِ بحاجة لأصدقاء أكبر وعالمٍ أكبر... وحلوى أقل؟

على ورقة بيضاء بأول قلم حبرٍ جاف قررت ستكتبين... الورقة البيضاء لن يملأها شيء، ولا حتى آلاف الأيام عليها ولا حتى كل الوجوه وكل الأحداث وكل النسخ والطبعات والتواقيع المكررة التي تنتهي بـ... مع حبي. الورقة البيضاء أبداً حكايا لم تُقرأ بعد. أما قلم الحبر الجاف فلأهم أخبرونا أننا عندما نكبر لن نخطئ.. لن نكون بحاجة لأقلام الرصاص ولا المحاة. لكنني اكتشفت بعد حين أن أقلام الحبر الجاف جاءت لأن أناملنا لن ترتعش عند كتابة العبارات الكاذبة ولأننا سنرتكب أخطاءً لا يمحيها شيء!

"هل تذكرين قطعة الحلوى الحمراء الأخيرة؟" دفنتها يومها بين الحشائش، تحت جذر إحدى الأشجار لتنمو شجرة أوراقها بيضاء بأسطر منتظمة تثمر قطع حلوى حمراء يانعة لا تهزها عندها الرياح إذا ما الطيور رحلت.

سوف لن تكون هناك من قطع حمراء أخيرة. وسوف تعود حيرتي فارغة الجيوب في رحلة البحث عني.

أنا أردت أن أعرف متى كبرت؟ أردت أن أتذكر... وعدت ذاكرتي أني سأكتب، سأوجد تلك الذاكرة المفقودة التي أكونها دون حتى أن تعرف وها أنا أفي بالوعد. أنا أكتب، من أجل القطعة الأخيرة الحلوة من ذاكرة الطفولة... أكتب.

ولديّ الحبيبين، خالد وعبد المحسن
ملاكي الصغير، داليا

بثينة العيسى

محبّة وقُبلةٌ وبعد،

في البداية، أحبّكم كثيراً، وأكثر بكثيرٍ مما يمكن لمخيّلة أيٍّ منكم أن تتصوّر. ولا يمكن لكاتبة قصصٍ مثلي أن تستهين بالقوة الخارقة لمخيّلة طفل، (هذا صحيح، مخيّلة الطفل خارقة، مثل السوبرمان أو أكثر قليلاً).. ولكنني متأكدة من أمرٍ واحد؛ وهو أننا لو وضعنا مخيّلة كلٍّ منكم في خلاّط المطبخ، لكي نحصل على مخيّلة واحدة سوبرمانية، فحتى هذه المخيّلة العملاقة لا تستطيع أبداً، ولا بعد مليون سنة، أن تدرك كم أحبكم.

ولأنني أحبّكم، فأنا أريد أن أشارككم أجمل ما لديّ، لأن هذا هو ما يفعله الناس عندما يحبّون بعضهم. إنهم يتشاركون الجمال. مثل المرات الكثيرة التي يهتف فيها محسن لكي ننظر إلى القمر لأنه مدوّرٌ وبُرتقاليّ، مثل مئات المرّات التي شاركَنا فيها خالد أكل الكوكيز والآيس كريم، وحتى داليا – ذات العامين – عندما ترقصُ رقصَتها العجيبة، فهي تصرُّ أن ننظر إليها. إنها تشاركنا جمالها الخاص.

أنا أيضاً عندي أشياء جميلة أشارككم إياها. عندي كلمات، والكلماتُ ثمينة كالكنوز، لأنها المكان الذي تخزّنُ فيه المعرفة، والذاكرة، والحكايا، والأسرار، وهي - بصراحة شديدة - المادة السحرية التي تتكوّن منها أمُّكم. أظنّ بأن الوقت قد حان لأعترف بهذا الأمر، وأقصّ عليكم حكايتي..

كان يا ما كان..

كانت هناك طفلةٌ صغيرة تلعب، وقد لعبت بكلّ الأشياء الممكنة، بالكتبِ والأقلام والقراطيس (ولعبت أيضاً بالدمى وبسلاحف النينجا، والسلاحف الحقيقية، ديدان القز والحلازين، وكل شيء!)، وفي أحد الأيام، وبينما الطفلة تلعب، ظهر لها أرنبٌ رماديٌّ ظريف، اسمه أرنب الكتابة، وقال: "تعالي معي يا صغيرة، سوف أدلّك على بلاد العجائب".

سوف تهتفون الآن: مهلاً يا ماما. هذه حكاية أَلِس!

نعم، إنها حكاية أَلِس، ولكنها أيضاً حكايتي. وحكاية كل إنسان. فلكلٍّ منا أرنبه الخاص، الذي يأخذه إلى مغامرته الخاصة، وقد كان أرنبي هو أرنب الكتابة، وبلاد عجائبي هي اللغة، وكلّي توقٌ لمعرفة أي نوعٍ من الأرانب سيظهر لكلٍّ منكم، وأي نوعٍ من المغامرات ينتظركم، وتلك اللحظة الخارقة، التي يكتشفُ فيها كل إنسان مَن هو، وممَّ يتكوّن، وما هو دوره في الحياة. لحظة ظهور الأرنب، إنها أجمل لحظة في حياتنا.

هل تساءلتم مرة: لماذا كان على أَلِس أن تلاحق الأرنب؟ لماذا لم تتجاهلهُ وحسب؟ أنا أعتقد بأنه لا يمكنُ للإنسان - مهما حاول - أن يتجاهل أرنبه الخاص، وما أعرفه عن الأرانب أنها لا

تتركنا أبداً، حتى لو تجاهلناها، أو تعمّدنا إغضابها، أو طردناها بقسوةٍ. نعم، يحدث أحياناً أن تخيفنا المغامرة وأن نتصرّف بقسوةٍ مع الأرانب، ولكن هذه الأرانب مميزة جداً، لأنها تتفهّم خوفنا وتغفر أخطاءنا ولا تتخلى عنا أبداً، إنها ستظلّ تظهر وتظهر، تتقافز في المكان، تشدّنا من ثيابنا، تؤرجح آذانها الطويلة في الهواء، سوف تدفعنا للجنون والصراخ أحياناً، لأنها جادة جداً في المهمة الموكلة إليها، مهمة ندائنا.

لقد لعبتُ مع أرنبي كثيراً، منذ سنوات كثيرة جداً وهو يظهر لي لكي ألاحقه، لأكتب له حكاية، أو قصيدة. حتى أنني قمتُ - وأنا في الثانية عشرة من عمري - بإعادة كتابة القصص التي أحبها (الأميرة الصغيرة، وروبنسون كروزو، والحديقة السريّة)، وأنسبها إليّ. لم أكن قادرة على الإتيان بقصّة، ولكنني لم أكن لأكفّ عن المحاولة. إذا كبرتم أكثر، سأريكم مسوّدات تلك القصص المضحكة والمنتحلة، ستحبونها!

ومنذ أن ظهر الأرنب، وأنا أكتب، وقد كتبتُ كثيراً في حياتي، كتبتُ في كلّ يومٍ تقريباً، وإذا مرّ يوم دون كتابة، فأنا أتحوّل إلى شيءٍ غاضب، مخلوق يشبه العملاق الأخضر، ورغم أنكم صغارٌ جداً، إلا أنكم لحظتم كم يمكن لأمكم أن تكون مضطربة عندما لا تكتب. إنني أرجو أن تسامحوني على ضعفي، فأنا لا أتحكم بالكتابة أبداً، وهي غالباً ما تسيطر عليّ بالكامل، وهذا يجعلني أبدو بعيدة وغير منتبهة، ولكنني آمل - الآن وقد شرحتُ لكم طبيعة الأمر - أن تصبح الأمور مفهومة أكثر، وربما محببة، ففي أوقاتٍ كهذه، أكون منهمكة في ملاحقة الأرنب، وهو عادة ما يظهر أمامي ويقفز قفزاته

المجنونة ويهتف بأنه قد عثر لي على "كلمة جديدة" وأن عليّ أن أتبعه لكي أشاهدها بنفسي، كلمة جديدة تولدُ الآن، جميلة ورقيقة مثل زهرةٍ بريّة. هل يمكن أن نفرّط بفرصةٍ كهذه؟ فرصة ولادة كلمة؟ تحيّتها والتعرّف عليها، محبتها وكتابتها؟

إن الإنسان الغاضب ليس إنساناً جميلاً، ولا أحد يحبّ أن يتحوّل إلى العملاق الأخضر، ولكن أخشى بأن هذا هو الثمن الباهظ الذي يدفعه الواحد منا عندما يقاوم النداء، ويتظاهر بأنه لا يرى الأرنب.

ليس من حقّ أي إنسان، يا أطفال، أن يتجاهل مغامرته الخاصّة. ليس من حق ليلى، مثلاً، أن تلتفّ حول الغابة، ولا من حقّ جاك، ألاّ يشتري الفاصوليا السحرية. ولا من حق دورثي، ألاّ تذهب إلى مدينة الزمرد. ولا من حقّ ماما، ألاّ تكتب.

ليس من حقنا أن ننكرَ الطريق الذي خُصّصَ لنا، لأننا إن فعلنا، فلن نكون نحن. هل تعرفون ماذا سيحصل للعالم إذا تخلى الجميع عن أرنبه؟ سيصبح الناس متشابهين، مملين، وستمتلئ الكرة الأرضية بالعماليق الخضر.

ويجب أن أخبركم، بأنني أغضبتُ أرنبي لمراتٍ عديدة في حياتي، عندما فعلت أشياء لم تكن مخصّصة لي، كأن أدرس الطب، أو إدارة الأعمال، أو أعمل في الوزارة.. فعلتُ أشياء لا تشبهني ولا أحبها، أشياء أسميها أخطائي، وقد تعلّمتُ منها أشياء كثيرة، أهمّها.. أن حياة الإنسان يجب أن تصبّ في الأشياء التي تشعره بالدهشةِ والجمال. وهكذا، كما تعرفون، تركتُ عملي وتخصصي الدراسي، وتفرغت للكتابة، لصديقي الأرنب.

أتدرون ما هو أجمل ما في الأمر؟ أنني لم أعد محتارة ولا مُتعبة. لا يستطيع المرء أن يكون مشوشاً لمدة طويلة بشأن هذه الأمور. يحق لنا أن نحتار مثلاً بين قطعة براوني وقطعة تشيز كيك (أنا سأختار البراوني بدون تردّد بالمناسبة)، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يحتار بشأن تلك المادة التي تكوّنه؟

هذا سؤالٌ سهلٌ جداً بالنسبة لي: إنها الكتابة.

ماذا عنكم؟ ممَّ يتكوّن كل واحدٍ منكم؟ وما نوع الهدايا الجميلة التي ستمنحونها لهذا العالم؟ ستعرفون ذلك، عندما يحين الوقت. عندما يجيء الأرنب.

لأني أحبك

رندا الشيخ

إليك أكتب أيها الطفل الجميل. وأرجو أن تقرأ حروفي بترويّ.

أعلم بأنك ستفعل، وموقنة بأنك ستلتهم هذه الحروف وتخبئ ما تبقى منها في جيب قلبك الصغير للذكرى. فما كتبته لك هو حديثٌ لا سلطة للكون فيه. إنه حديث حرّ خرج من قلبي بعد أن أخذ مصادقة عقلي وسافر إليك محلّقاً، ليشاركك بعض الأسرار التي لم أبح بها لأحد غيرك.

لكن وقبل أن أفعل، أريدك أن تعلم بأني لن أطلق عليك أحكاماً مسبقة، ولن أغرقك بعبارات منمقة، ولن أمارس عليك سطوة التنظير الممل! فأنا لم أعش ظروفك، و لم أتذوق مرارة القهر مثلك، و لم أعرف يوماً كيف تبدو - عن قرب - أعمدة الدخان المتصاعدة من الأبنية المحترقة، وكيف يسرق دويّ الانفجارات النوم من الأعين المرهقة، ليزرع بدلاً منه قلقاً لا يخبو! و لم يحدث أن ارتعدت من اهتزاز الأرض الراقصة تحت أقدامي بسبب قذيفة طائشة، أو ذقت طعم اليتم، أو اختبرت موت جارٍ أو أخ أو صديق أمام عينيّ. نعم، كانت طفولتي مختلفة، لكن هذا الاختلاف لم يصل إلى حد تجرّع

الحرمان قطرة قطرة في موسم صيف حارق، أو الانكماش جوعاً بعد الاختناق بالصقيع! وإن كنت أرى أنك تتألم وأشعر بذلك! لكن ألمك اليوم يا صغيري لا يعني أن ليله خالد، بل سيفرّ مسرعاً حين يلمح الشمس ترفل بخيلاء، وهي تنثر البدايات الجديدة التي تحتاجها أنت لتتنفس الحياة بفرح!

لكن أتعلم أين تجد الفرح وما هو سرّه؟ سأخبرك.

الفرح هو كتاب يحمل حروفاً معقودة بالسكر. فلتلك الحروف التي تقرؤها طعم الحلوى التي قد تحتفظ بها في جيبك لتأكلها خفية. بل هي ألذ من الحلوى. ذلك لأن مذاق الحلوى مؤقت، ينتهي فور انتهائك من التهامها، لكن مذاق الأحرف يبقى معك ليكبر ويصبح أكثر لذة يوماً بعد يوم. أما سرّ ذلك الفرح، فيكمن في أن كل كتاب سيأخذك في رحلة عجيبة حول العالم لزيارة أماكن ساحرة وزاخرة بالجمال والحب، وستلتقي فيها بأطفال يشبهونك في إنسانيتهم ويختلفون عنك في ألوانهم ولغاتهم وظروفهم، ولن تكون بحاجة لاستقلال سيارة أو طائرة أو حتى فيل هندي! كل ما عليك فعله هو أن تغمض عينيك وتسافر إليهم. ولن يكلّف الأمر سوى وقت وضوء شمسٍ أو شمعة.

إن الكتب يا صغيري عالم متفرّد، يعزّز فينا إنسانيتنا، ويشعل جذوة الشغف للمعرفة في عقولنا، فلا حياة دون معرفة ولا معرفة دون أسئلة. وحين تتساءل وتبحث وتعرف، فأنت تخلق فرصاً جديدة لك ولغيرك، وترسم ملامح واقع مختلف، ينتشلك من قاع القهر إلى قمة الإنجاز. فالمعرفة سلاح التغيير الذي ستحتاجه دوماً حين تكبر، إنها لغة الحرية والقوة والبهجة والحب. إنها طوق النجاة

الذي يبحث عنه الجاهل الذي لا يدرك مكمن الخطأ في حياته. إنها الخلاص للمتعلم من العنصرية البغيضة والشتات والوحدة والحزن.

ولأني أحبك وأحلم بأن أراك أبهى وأفضل وأجمل، كتبت لك رسالتي هذه.

إلى طفلي الذي لم أنجبه:
لن أخدعك بسحر الكتابة.. لكنها اللذة!

سعدية مفرح

ليس هذا النص هو الذي أعددته للنشر في هذا الكتاب أولاً. كنت قد كتبتُ رسالة مبهجة مليئة برائحة الزهور وألوان الفراشات وضحكات الدببة الصغيرة وأزياء باربي، بالإضافة الى ألعاب الأجهزة الذكية وصور أشهر لاعبي كرة القدم في العالم وشعارات فريقي برشلونة وريال مدريد، و... و...، وكل ما يعشقه الصغار كما أظن، لكي أدلف من خلال تلك الأشياء المحببة لهم إلى عالمهم، فأضيف له شيئا جديدا ربما يستبدلونه بكل تلك الأشياء عندما يكبرون؛ الكتابة.

ولكنني لم أستطع أن أستمر في متاهة الخديعة طويلا.

عندما اقتربت من حدود الألف كلمة وأنا أكتب، توقفت فجأة. أزحت لوحة المفاتيح من أمامي ثم قرأت ما كتبته عن أفانين الكتابة التي تحوّل سواد الكرة الأرضية إلى اللون الوردي، فعدت لأظلّل الكلمات ثم أضغط على أداة القتل القابعة في أقصى يمين لوحة المفاتيح "ديليت". اختفت الكلمات المبهجة في تلك اللحظة إلى الأبد.

الكتابة ليست سحرا. والكاتب ليس ساحرا. أعني أنها ليست ذلك العالم السحري الجميل الذي نتفنن، نحن المولعين بها، في تزيينها أمام الآخرين لنبدو أمامهم، ربما، وكأننا الأكثر قدرة على اقتناص اقتراحات الحياة الأجمل من خلالها. قد ننجح في خديعة الكبار، وكثيراً ما فعلها من سبقنا إلى الكتابة وخدعنا، لكنني لست واثقة أنني سأفعلها مع الصغار الذين ينبغي أن أوجّه هذه الرسالة لهم.

وإن فعلتها.. فمن يدري بتفكير هؤلاء الصغار عندما يكبرون ويصبحون قادرين على قراءة رسالتي؟

بأي حجر سيرمونني أو يرمون ما تبقى مني على هذه الأرض، عقابا لي على ممارسة الخديعة مع سبق الإصرار والترصد والمجاهرة، ومن دون الاختباء وراء قصة أو قصيدة مثلا؟

أعرف أن الأبناء عادة يغفرون لأمهاتهم بعض كذباتهن الصغيرة، بل والكبيرة أحياناً، عندما يكبرون.

لكنني لست أما!.

لطالما قلت للآخرين أن هذا خياري الذي أصبح قراري لينتهي وكأنه قدري النهائي، وأنه يناسبني تماماً، حتى أنني أتذكر متى اكتشفت أنه يناسبني. كنت قد انتهيت من إعداد مسودة كتابي الرابع "مجرد مرآة مستلقية" عندما وقفت عند تلك الدرجة التي تودي بي إلى ما أصبحت أعبّر عنه لاحقاً بأنه مهوى الردى. فكرت أن يكون ذلك الكتاب الذي كنت أراجع نسخته التجريبية الأخيرة قبل الطباعة هو البديل عن أن أكون مهيأة للأمومة ربما، فأصبح البديل والمنقذ في اللحظة نفسها.

لا نختار أقدارنا، لكننا نختار كلماتنا ونستطيع ببساطة أن نجعل من تلك الكلمات تبدو وكأنها أقدارنا.. وتلك هي الكتابة. كتابتي على الأقل، والتي لا بد أنني أحاول رسم ملامحها الآن لأزيّن صورتها لك يا صغيري الذي لم أنجبه وأعرف أنه لن يكبر ولن يقرأ تلك الكلمات أبداً.

هل تغيّرنا الكتابة فعلاً؟

هل نتغيّر بها؟

أم نتغيّر فيها وحسب؟

تستهوينا حياتنا المرتبة، رغم فوضويتها أحياناً، على الورق. ويغرينا أن تبدو أمام القارئ وكأنها فردوسه المفقود. ندججها بالعبر والحكم التي نفترض أمام ذلك القارئ الضحية أننا استخلصناها من الحياة، فنسهم في خداعه ذلك الخداع الشهي الذي يجعله يتلمس أطراف الأوراق الخضراء فتتندى أصابعه ويفرك جناح فراشة ملونة حطت للتو على حافة الكرسي القريب، ولعله يغني مع بلبل عابر بين الأسطر فتعبق رائحة غابة استوائية عربشت أغصانها على الجدران بينما يمسك بكتابه بين يديه.

الكتابة تفعل كل هذا فعلاً يا صغيري الغائب للأبد، تخدعك لأجلك. ترسم لك حياتك المشتهاة وتغويك لإعادة إنتاج المادة الإنسانية الخام والتي خلق الله عليها جدك الأول ضمن سياقات الجنة البعيدة في الزمان الأول والزمان الأخير.

صحيح أنها لن تعيدك لإرث جدّك المفقود في فردوس الغواية الأولى، ولكنها على الأقل تذكّرك على الدوام به، وتهبك جنان أخرى بديلة في السحر والدهشة والحركة المستمرة نحو الأعلى.

ستقرأ هذا الكلام يا بنيّ، الذي لا أعرفك لأنني لم أنجبك، بعيون صغار حقيقيين لم يكبروا بعد لكنهم على الأقل نجوا من غيابك الأزلي، كما يفترض أنهم نجوا أيضا من الزلازل، والبراكين، والمباني المتداعية، والبرد المفاجئ في عراء الفقر، والجوع القاتل في فساد الأزمنة والأمكنة والأخرين، والأمراض التي تختارهم بعناية من دون أن يوفّر لهم الكبار ما يوازيها من عناية.. والحروب بأشكالها.

قل لي يا صغيري الذي كبرت في الغياب بعيدا عن عنايتي، كيف بالله عليك يمكن للكتابة أن تنقذك وأصدقاءك الحاضرين والغائبين من تلك الحروب مثلا؟

كيف لكلمات تستوي على عروش الروح أن تحمي الجسد من شظايا قنبلة عنقودية؟

وكيف لها أن تعيد اللوعة على الورق بإحساس الأمومة المفطورة القلب لحظتها؟

لطالما وقفت أمام أيقونة القلب المفطور في أجهزة الهواتف الذكية لأسميها بقلب الأم. وكثيراً ما استخدمت تلك الأيقونة في رسائلي الهاتفية للتدليل على الأم. وها أنذا الآن أختبئ وراءها لأتقمص ذلك الدور ولو لربع ساعة أكتب فيها رسالتي إلى طفلي الذكي.. الذي سيكبر يوما وهو يحب القراءة والكتابة تأثرا بأم لم تلده. طبعا سيسعدني جدا أنه كبر وتفتحت روحه في حبر الكلام المكتوب، حتى وإن اكتشف أن الكتابة لن تغيّر العالم كما قد تغيّره قنبلة ذرية، وأن الكرة الأرضية ليست مكانا مناسبا لنمو الصغار مثلا، بالرغم من أنها تعج بعدد كبير جدا من الشعراء والكتاب والكتب والمكتبات. صحيح أننا بوجودهم وبوجود ما يكتبونه أصبحنا أكثر قدرة على احتمال بعضنا

البعض، لكن عيون الأطفال الدامعة والحزينة والمنطفئة والمفقوءة والميتة ما زالت تلاحقنا لتكشف عجز كل الكلمات عن تصوير لوعتها الحية حتى في موتها المعذب. وها هي عينا طفلي الذي لا بد أنه سيشكرني في العدم لأنني لم أساهم في وجوده ضمن سكان الكـــرة الأرضـــية تلمعـــان في وجداني من خلال ملامح أطفال عبرت أسماؤهم بين الكلمات العـــابرة لتصنع مجدها النضالي في لحظات معيّنة.

تحاصرني الوجوه وتختلط عليّ في لحظة الكتابة لأختار من بينها ما لا يمكن اختياره.

تحاصرني ذاكرتي بالأسماء فتختلط لتظهر وتغيب دامية أو خائفة أو ميتة. تطل من شقوق تلك الذاكرة أو مـــن فجـــائع الكلمـــات المكتوبة عن سنوات الحروب والتهجير والمذابح في كل مكان ومنـــذ أن عرفت معنى الزمان.

لأطفال فلسطين الركن الأهم في مشهدي المتغير دائماً، لكـــن الأخرين كثيرون وموجوعون أيضا وميتون.

في سوريا، وفي مصر وفي الـــيمن وفي العـــراق، وفي الخلـــيج والمحيط، وفي العالم البعيد خارج الوطن المتشظي على خريطة العرب أيضا، وبالقرب مني تماماً.. في وطني حيث أعود من عملي لمنـــزلي في الجهراء كل يوم لأصادف طفلا كان من المحتمل أن يكون هو طفلي الحقيقي جالسا على الرصيف ليبيع ما يتيسر له ويشتري حلمه الكبير بوطن، فكلمة "بدون" لا تبدو له اسما مناسبا لوطن!

هل تستطيع الكتابة مثلا يا صغيري القابع هناك في زاوية مـــن زوايا الانتظار أن تمنحك وطناً حقيقياً يحبّك ويعترف بك كما تحبّـــه وتعترف به على سبيل المثال؟

لقد خدعتك أيها الطفل الجميل، رغم عينيك الفزعتين، مــرة عندما وعدتك كاذبةً أنني سأنجبك. أعرف أنني أقسمت لك علـى ذلك وأنا اختار اسمك الموعود من جلال التاريخ وبهــاء القصـائد، لكنني حنثت بقسمي وأخلفت وعدي ببساطة، ولن افعلها ثانية. لن أخدعك مجددا فأعدك بجنة طافية على بحر من السعادة ستضمنها لك الكتابة في نهاية خدمتك لها. فقط سأخبرك بسري الصـغير معهـا؛ اللذة.

أقولها لك وأنا أستعيد كل اللذات المذهلة التي منحتها لي الكتابة بكل أشكالها لمجرد أنني أحببتها، وجعلت منها جناحي الذي ساعدني على التحليق بعيدا جدا نحو الأعلى.

كثيراً ما فكرت أن تلك اللذة بالذات هي جنتي الموعـودة في ذلك الطرف القصي من وجودي كله علـى هـذه الأرض، ومـن الأمومة التي لا أجيد منها سوى أن أكون ذلك القلب المفطور.

طفل يصنع مجده

سعيدة خاطر الفارسي

عيناه مكتظتان بالدموع، فمه مكتظ بالذهول، قلبه مكتظ برعب المجهول، إنه طفلي الجميل الذي فقد أمه وأباه وأخوته، وأمْنه وسكينته في غزة مؤخرا، وفقد معهم جزءا غاليا عفيا من جسده، وأصبح مقيّداً بكرسي متحرك ليرافق أصحابه في أول يوم إلى المدرسة، حيث يراقب أصحابه السائرين على أقدامهم والذين أسعفهم الحظ وحده بالاحتفاظ بها، بعد حفلة الموت التي رقصتها إسرائيل بحجة حماية مواطنيها من إرهاب الفلسطينيين وصواريخهم المهددة لها.

ابني العزيز: إن الدرب التي كانت رجلاك تدب عليها هاجرت من تحت قدميك، وأمك الحنونة سافرت لجنان الصابرين، وكذا والدك وأخوتك، أرسلوهم بعيداً عنك قسراً لتظل وحيداً جريحاً معدماً، أما بيتك فتناثر رماداً، ألعابك التي أهديتُ لك في عيد ميلادك الثامن وفرحتَ بها كثيراً، سرقوها حين دمروها تحت الركام، وسرقوا فرحتك بها، وكتابك المفضل الملون بقصص الأنبياء الذي تقرأه لك الماما قبل المنام لم تجده، وكان بودّك لو هربتُ به معك، إلا أن القصف لم يمهلك فأخذ كل شيء تحبه، لكن السماء تعرف جرحك

جيداً وتسمع لسانك المحبوس في مرارة فمك، ولربما سمعتَ أنتَ مراراً مقولة من أبيك تكرّر: الشكوى لغير الله مذلة يا ولدي... فتجمّد صوتك ودمعك وتجمّد عزمك، وتجمّدت طفولتك باكراً، قبل أوان السنين الغضة التي عشتها، تحلم بعودة كامل أرضك وتراقب جدك الذي مازال يخبئ في ضلوعه وتحت صدريته الفلسطينية القديمة مفتاح بيتكم في حيفا المسروقة بمن ظل فيها من حجر وشجر وبشر، لكنك لا تدري أن عزمك مازال سائلا يتنقل بين شرايينك وأوردتك ويضخ إليها عزم الحياة... وأنك لست وحدك، فعمّتك التي ألبستك ملابس المدرسة بحب كبير، وخالك الذي يدفع بعجلة الكرسي على الدروب، والصغار زملاء الدراسة من الأصدقاء والجيران، الذين يلتفون حولك كلهم تخفق قلوبهم بحبك والاهتمام بك، فأنت لست الوحيد الفاقد لأحبته واصطفاف أسرته حوله، بل هناك كثر يا طفلي الحبيب يشاطرونك هذا الحال المؤلم، كثر يجرُّون عجلة الزمن ليلتحقوا بمواكب النور والحياة.

ولدي الجميل: إنك ستلتحق بالمدرسة وهي طريقك لتغيير الظروف المؤلمة والحزن، وهي طريقك للتواصل مع الرفاق الصغار، وطريقك نحو العبور إلى عالم ينتظرك أن تطرق بابه، ليفتح لك السبل الفسيحة التي تليق بعزيمتك واجتهادك وصبرك.

أعرف أنك ترزح في القيود الكثيرة، قيد الاحتلال الذي لا يريد أن يراك متمسكاً بهويتك وأرضك ودينك، إنه القيد الذي يريد أن ينفيك من الوجود ليحلّ مكانك هو، لكنك قد استوعبت الدرس، ولن تهاجر من أرضك حتى لو دفنوك فيها كما يفعلون في كل مرة بحجة الرد على الإرهاب، ولن تُهجَّر قسراً ببطشهم، وحقدهم،

وعنصريتهم، ستعيش هنا في هذه الأرض التي تشبهك ولا تشبههم، تعرفك ولا تعرفهم، تسمع صوتك وأغنياتك ولا تعرف لهم نكهة ولا طعماً مميّزاً، تعشق لغتك ولا تفهم لهم لغة، إنها منك وأنت منها أرضك أنت، وجدّك من غرس زيتونها ونخلها وبرتقالها.. صنوبرها وسروها، سندياها وبلوطها ولوزها، زعرورها وخروبها، وجدّك من جلب حجارتها لتبني معالمها الحضارية الخالدة وتعمر أقصاها وقبة صخرتها، وكنائسها، ومعابدها، وجدّك الذي وشمها بأغنياته ورقصة دبكته المحببة، وزيّه العربي المطرز بالأناقة والجمال، وأعرف أنك تعاني من قيد الحصار الذي أفقرك وجوّعك وأمرضك وقطع عنك سبل العيش الكريم، والتواصل مع الآخر عبر معابر ومنافذ أغلقها وحاصرها حتى لا تحلّق روحك في سماء الله، ولا ترتاد خطواتك الأرض لتتبادل الرزق والمعيشة في أي مكان من بلاد الله، وأعرف أنهم يقيدونك بالفقر والخوف واليتم، حتى لا تسعى لحياة أفضل بل تحرص تلك القيود على مصادرة عزيمتك وانهزام روحك المتوثبة لمواجهة العقبات، وأعرف أنك تعاني من قيد العجز والمرض لكنك حتما ستردد: إذا كسروا رجلي فلم يكسروا عزيمتي، وإذا اغتالوا أحبتي فلم يغتالوا همتي.

وهمّتك يا ولدي الحبيب أريدها أن تتجاوز أستار هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، ولا عليك إلا أن تكتسب مهارات فن التحليق، حلّق إلى الفضاءات المشعة بالنور، وأنت في حصارك، حلّق وأنت في مكانك، حلّق وأنت في عجزك، حلّق وأنت في فقرك، حلّق، وحلّق للنور، والنور يابني كامن بين دفتي كتاب، فكم من ورقة قرأها طفل حوّلته إلى باحث عن قراءة أخرى، والأخرى

سجّلته في خانة القراء المتفردين الذين نادهم السماء اقــرأ.. اقــرأ.. اقرأ، اذهب إلى المدرسة أو إلى المكتبة أو إلى النادي أو إلى غوغل في جهازك، واقرأ كتاباً خبأته السماء لك، سيفتح قريباً لــك الآفــاق المحاصرة، ويوسع لك المسالك الضيقة، وتسافر بعقلــك، بروحــك وبذهنك لمكان بعيد بعيد، هناك ستجد نفسك، ستجد آية محفوظــة لك، ومندسة في النفس أو في الآفاق، وهناك قد تجــد أيــدٍ كــثيرة ممدودة إليك، قد تكون يد محمود درويــش أو سمــيح القاســم، أو المتنبــي، أو شكسبير، يد تشدّك لريشة النسر فتصبح شاعراً، وقــد تجد فدوى طوقان تتجاوز بك الرحلات الصعبة وتتســلق الجبــال ووعورها لتصل إلى النور، وقد تجد نجيب محفوظ أو غسان كنفــاني، أو تولستوي، أو غوغل أو فيكتور هيجو، يشدك نحو إبداع روائــي متفرد، وقد تجد يد أحمد زويل أو أديسون، أو أرخميــدس فتصــيح وجدها وجدها وما تلك التي وجدها سوى ذاتك ونجاحاتك، وقــد تمتد إليك يد أبن خلدون أو ابن رشد أو يد مايكل أنجلو أو بيتهوفن أو سيد درويش... هناك أيد كثيرة قد تمتد إليك من كل اتجاه، فتخير أين وكيف تتبلور خطواتك الأولى، لتتابع طريق الألف ميل بخطــوة تحدد انطلاقتك الكبرى، اقرأ يا بني، اقرأ، ثم اقرأ، حيث لا فاصل بين القراءة والنجاة، فالقراءة طوق العبور لعوالم مختلفة أحلــى وأسمــى، وبالقراءة تنكشف الظلمة، تتوارى وتأفل، وتشرق شمسك مســجّلاً اسمك على قمم التميز والخلود، اقرأ يا بني لتكتشف ذاتك، متجاوزاً القبح، وخالقاً الجمال الذي سيؤسس لوجود أروع وأبهى وأجمــل، وحياة تليق بقدراتك وطموحاتك، اقرأ يا بني، فقط اقرأ، اقرأ.

كيف أنقذتني الكتابة؟

سلطان العميمي

الكلمة أوكسيجين الحياة، لذلك، عندما سألوني لماذا تكتب؟ أجبتهم: كي أتنفّس وأعيش، وأمدّ غيري بالفرصة نفسها.

أقول هذا دون أن أفصل الكتابة عن القراءة، فالكتابة بحاجة إلى وقود مستمر، وأحد المصادر التي تمد الكاتب بالطاقة المتجددة هو القراءة، وكلما قرأتَ أكثر، كَتبتَ أكثر، لتشكّل كتاباتك وقوداً لكتابات غيرك.

لقد عشت حياة جديدة مع كل كتاب قرأته، ومع كل معلومة قرأها واستفدت منها أدركت قيمة الكتابة وأهميتها أكثر، وأدركت أن مساحة من الجهل في داخلي تم مسحها لتحل محلها مساحة من الضوء، وأن أرضاً جديدة في داخلي تم استصلاحها وزراعتها بمعلومات وأفكار جديدة.

لقد أنقذتني القراءة من الضياع، ومن تسليم عقلي وأفكاري لمن لا يحترم ذاتي وإنسانيتي واحتياجاتي الحقيقية، وعندما دخَلتُ عالم الكتابة، كنت أضع في ذهني جيداً ضرورة رد الجميل لكل من أنقذني من الجهل، بإكمال مشوار الكتابة معهم، ومشاركتهم عناء المحافظة على الإنسانية من كافة أشكال الجهل والهمجية!

عندما دَخَلْتُ عـالم القـراءة، امْتَلَكْـتُ عيـون الآخـرين، ونَظَرْتُ من خلالها إلى الحياة من زوايا جديدة، مَرَرْتُ بأحاسيسهم، وأنقذني الكثير من الكتب من الوقوع في فخ الحزن، وألقت بـي كلمات كتّاب كثيرين في بحور من السعادة والأمل والتفاؤل، لذلك أردت أن أهِبَ لغيري عينيّ اللتين تشكلان زاوية رؤيـتي للحيـاة، فَكَتَبْت.

كَتَبْتُ كي أجعل الأشياء أكثر وضوحاً، وأقرب إلى حجمهـا الحقيقي، لا كما نتصور أحياناً أنها أكبر أو أصغر مـن حجمهـا في الواقع، أما تلك التفاصيل التي يمر عليها الناس دون انتباه أو يتحاشون الحديث عنها، فقد اقتَرَبْتُ منها أكثر، وكَتَبْتُ عنـها علّـني أوفّـر عليهم عناء البحث عن وصف أو تفسير لهـا، أو أخفّـف عنـهم شيئاً من الحزن الذي رمت به ظروف الحياة نحـوهم، علّـني أزرع نبتة تفاؤل في أرضهم، فأنا أؤمن أنه لا توجد أرض غـير صـالحة للزراعة، وكل ما نحتاجه هو معرفة طبيعـة هـذه الأرض وكيفيـة استصلاحها.

لذلك أتمنى منك أنت أيضاً أن تكتب، لتكتشـف أن الكتابـة ليست إلا وجهاً من أوجه الصداقة، فكتاباتك ستصل إلى أشـخاص قد يعجبهم ما كتبت، لتصبح صديقاً جديداً لهم ولأفكارهم، يعرفونه أكثر مما يعرفهم، وهكذا حال من يؤلف كتاباً، إنه كمن يطلق كتابه كحمامة، ترفرف بأوراقها وأفكارها وصياغاتها، فتتلقفها أيدي الناس وعيونهم وعقولهم، لتحلّق فيها ومعها، وقد تحـل علـى أغصـان تفكيرهم وتعشّش، أو لا تجد مقراً لها فتغادر، وقد يتأملون في بـادئ الأمر وجه غلاف هذا الكتاب كما يتأملون شخصاً يرونه لأول مرة،

أو يتوقفون أمام عنوانه، ثم يتصفحون أوراقه، ليبحثوا عن خباياه ومكنوناته، وفي حقيقة الأمر هم يبحثون عنك أنت أيها الكاتب، عن أفكارك ورؤيتك.

اكتب، وتذكّر أنك تخلق عالمك الخاص، الذي تدعو القراء للدخول فيه من أوسع أبوابه، فتسمح لهم بالجلوس والاسترخاء، مسلّماً إياهم مفاتيح أبواب التفكير والنقاش.

عن أي مفاتيح أتحدث؟

أتحدث عن مفاتيح الكلمات والصياغات والأفكار، سلّمهم ما قد يفتح الأبواب والنوافذ المغلقة في داخلهم، فهناك شمس مشرقة خلف الجدران، وهناك من البشر من يظن أنه لا وجود لهذه الشمس إلا في الخيال، أثبت بكلماتك لأولئك اليائسين البائسين أن ثمة نوراً وهواء في الخارج، يمكن معهما التنفس ورؤية الأشياء بألوانها الحقيقية، وأنهم قادرون على التحرر من السجون التي بنوها في داخلهم وحبسوا أنفسهم فيها.

اكتب كي تلوّن حياة البشر، كي تلوّن ضحكات الكبار والصغار، كي تجعل لحظاتهم أكثر إشراقاً.

اكتب كي تقول للعالم إنك قادر على أن تمنح المحبّة والسلام للجميع، وأنك ضد الحرب، ضد الكراهية، ضد الحزن، ضد الجهل واليأس، فهذه الأشياء لا تعمّر أوطاناً، بل تدمّرها وتدمّر الإنسان معها، ويبقى العلم والكتابة من أهم الأدوات التي تبنى بها الأوطان والإنسان معاً.

إن الكتابة أحد أفضل طرق التعبير عن الإنسان الذي يسكن في داخلك، وعندما تكتب كلمات ذات تأثير إنساني، فإنك تصبح

كمن يلقي بسطل ماء على نار صغيرة، وعندما تؤلّف كتاباً، فإنك تصبح كمن يدفع باختراع يحول دون اشتعال النيران في مكان ما.

هل تعلم إذاً أن كتابتك يمكن أن تنقذ أشخاصاً من الموت؟

في كل يوم، يوجد أشخاص يموت في داخلهم الأمل بغدٍ أجمل، وأشخاص يموت الفرح في نفوسهم، لينبت محله اليأس والحزن، لكن بكتابتك يمكنك أن تحيي ذلك الأمل فيهم، إنهم في أمس الحاجة إلى من يكتب إليهم وعنهم، من يحكي حكايات تواسي حكاياتهم أو توازيها، من يرمي إليهم بحبل نجاة، أو حتى بقشّة يتعلّقون بها!

بكلماتك يمكنك أن تبني جسوراً تعبر بها نحو الآخر لإنقاذه، أو يعبر الآخر من خلالها نحوك ونحو العالم ليعيش بشكل أجمل.

بكلماتك يمكنك أن تساعد في تغيير لغة التخاطب بين البشر لتصبح أكثر تهذيباً وتشذيباً، وأكثر احتراماً للإنسانية، وأكثر قدرة على الغوص بعمق في حقيقة الأشياء، وأكثر تمكّناً في فهم البشر وطريقة تفكيرهم وتعاملهم مع الحياة التي يتمنون الخلود فيها!

إن الكتابة جزء من الخلود والديمومة، والكتاب الذي تكتبه يشكّل نبتة لكتاب آخر قد يظهر على يدك أو يد غيرك، قد تطول فترة ولادته أو تقصر، لكنه في جميع الأحوال سيبقى حياً في كتابات الآخرين، لا يتوقف عن التوالد، وعصيٌّ على الفناء.

رسالةُ شاعرٍ عربيٍّ إلى طفلٍ ما

عبد الله العريمي

إليك أيها الطفلُ أينما كنتَ في خارطةِ الوطنِ الكبير...

ها أنا يا صديقي أستدعي أزمنةً مُقبلة وبشراً آتينَ من زمـــنٍ لا أَعرفه، لكنني أُؤمنُ أن الآتي سيكون أجمل لو تركنا الأطفالَ بسلامٍ، مغتسلينَ بضوءِ أحلامهم، ويُلخبطون الألوانَ على جـــدرانِ العـــالَم بطفولةٍ كاملة، ويلعبون تحت سقفهم الأثير الشـــمس، ويلتحفـــون الفضاءَ دون احتمالاتِ أن لا يأتي الغد.

اشهدْ إذن أن عالمنا لحظة كتابة هذه الكلمات ساحةُ اقتتـــال، تتلذذُ بطعمِ الدماء، ولا يعني أحداً تحطّم ألعاب طفـــلٍ، ولا يهـــتم بتكسير كلّ أشياء الجمال، وحدها الكتابة والكلمات التي تمنحنا حقَّ التعبير والدفاع عن وجودنا، وأعرف جيداً أنْ ليس بوسع الحمامة أن تفعل أي شيء وهي تسافر وسط سرب من الطائرات الحربية، إلا أنه يا صديقي حسبها أنها تمارس حقها في الطيران، وأَعلـــمُ أن بنـــادقَ البشر في هذا العصر الدمويِّ تجيد اصطياد الفراشات، إلا أنه مـــوتٌ شريفٌ وبطوليٌّ جدا، لأنها قُتلت وذنبها الوحيدُ هو أنهـــا تطـــير إزاء أعين الصيَّادين دون خوفٍ أو رعب، ولكنها تَندفعُ بكلِّ حبٍّ لوجه الحب لا أكثر، لعلها وهي ترشُّ ألوانها عليهم يدركون انهـــم بشـــر، فالحبُّ والسلامُ حقان طبيعيان لكلِّ الكائنات.

إن الريح والأشجار والورود وكلّ مـــا في الطبيعـــة أخوتنـــا، يتوجعون كما نتوجع، يبكون بشكل غير حسي حين يبصرون طفلة بمريولها المدرسي غارقة في دمائها، وحين تَحملُ الريح - صـــدفة - بقايا لعبة تدحرجت من بين الأنقاض، لا لشيء إلا لكي تشهدهم أن طفلا ما كان هناك قد مات لأنه كان يحب الحياة.

يا صديقي أينما كنتَ وكيفما كان لسانك وسواء كان لونك أبيض كالقمر، أو قمحيا كلون الحقول، أو أسود كلـــون الزنـــابق السوداء، لك يا صديقي الصغير مساحة في الورق الأبيض يمكنك أن ترسم فيها بيتك وتوسِّعه كما شئتَ، لك في الأغاني مساحة للرقص الجميل، ولك في الكتب سكن توغل فيه حتى آخر الحكمة والرؤية، لتشكّل بالمعرفة وأنوارها أبعادك الرؤيوية التي لا تقتصر على جغرافيا معيّنة بل تمتد إلى الإنسان في كل مكان على هذه الأرض، جاعلاً من رؤاك مرايا باذخة أكثر تحضّراً وانفتاحاً، أعلم أنك تتمتم في نفســـك الآن وتقولُ إن أرحام النساء ما عادت تلدُ الأنبياء، وقد صـــدقتْ، ولكنها قادرة على إنجاب من يفعل فعلهم فيكون كلٌّ واحد منـــهم أكثرَ من بشر وأقلَّ من نبـــي.

كنْ فكرةً إذن لا شيء يحملها، ولا شـــيء يمكنـــه أن ينـــهي وجودها، فالأفكارُ لا تُقتل، ولا يُمكن لأحدٍ أن يُلقي القبضَ عليها، واحملْ قلبك ورؤيتك المضاءةَ بقناديلِ المعرفةِ، واخلقْ بلاداً للبلاد، لا شيءَ يحدُّ من امتدادكَ الإنساني، فالمعرفةُ والكتابة والفنـــون جميعهـــا كائنٌ كوني لا يَحملُ جوازَ سفرٍ وأوراقَ ثبوتيةٍ، إن الله يا صـــديقي الجميل حين خلق الكوكب الأجمل في هذا الكون الواسع لم يقسمه، حتى جاءت هذه الجغرافيا السياسية، إذن في البدء كلنا أبنـــاء هـــذا

التراب، نَغتسلُ بضوءِ شمسٍ واحدةٍ، وهواءٌ واحدٌ يختـــزلُ في ذراتـــه أصواتنا وذكرياتنا، وضحكاتنا وأحزاننا.

إن المعرفة يا صديقي هي القانون الإلهيُّ الأول، وبدايةُ الإنسانِ على الأرض كانت بسؤالٍ دائمٍ باحث عن إجابته، إنَّ هذا البحـــث يمنحنا الإحساسَ بالجهل، والجهلُ بدوره يُعطينا حقَّ المعرفة، وهـــذا البحثُ عملية لا منتهية، فكلُّ شيء ينمو ويتطور بشكل مســـتمر، وكلُّ معرفة لها قوانينها المعبّرة عنها، والتي يمكن اســـتثمارها لخدمـــة الإنسانية بمقدار ما تَحملهُ من حبٍّ للإنسانية، كما أنها أسلوبُ حياةٍ خلاّق، ومن يَتيقّنُ في لحظةٍ ما أنه وصل إلى قمة المعرفة والثقافة فهو يُعلنُ بذلك جمودَ عقلهِ وإفلاسه المعرفي، وتخشّبَ إمكاناته، فاقرأ يـــا صديقي حتى الحرفِ الأخيرِ وحتى الرمقِ الأخير.

هذه كلمات مسافرة إلى زمن آتٍ لتحلّق في صـــحو عينيـــك الممتلئتين بالبراءة والسلام، تذكّر وأنتَ تَقرأُ هذه الكلماتِ المُرهقة أنّ صديقا لك في زمن ماضٍ كتب إليك رسالة حبٍّ، حالماً بزمن أجمل وعالم أفضل تؤثثه الطفولة وحدها، لأنها الشيء الوحيد الذي يملـــك التميمة التي تغيِّرُ تكوين العالم، وتمنحه صفات النهر لا الحجر، وتحيل الأرض كلَّ الأرض إلى مهرجان ألوان، فاركض برجلك وشـــقَّ في المدى طرقاً للأغنيات والذكريات، لا تتنازل عن تاريخك ولا تسكن فيه أبدا، وكن ما تريد أن تكون، ولا تصدِّق المرآةَ كثيراً فهي تعكس ما أنت عليه الآن وليس ما يمكن أن تكون، وقلْ بكلِّ شجاعةٍ لمـــن تُحبّه أنكَ تُحبّه أكثرَ مما يَشعر ومما تعتقد.

اعلم أن صديقاً لك من زمن مضى أحبَّك قبل أن يراك، وعلَّقَ عليك أمانيه، لم يكن يَملكُ سوى أن ينتصـــر علـــى قـــبح العـــالمِ

بالكلمات والجمالِ المحض، فإن تمكنتَ أنت وإخوتك مـــن صـــناعة عالمكم الخاص كما نحلمُ به فحافظوا عليه بكل ما أوتيتم من فـــرح، وإن قُدِّر أن يستمر الأمرُ فانتصر بالمعرفةِ والحبِّ، واكتب لطفل مـــا واستدعي أزمنة مقبلة وبشرا آتينَ، كما فعل صديقك القديم.

كلمات ملوّنة كأجنحة الفراشات

عبدالرزّاق الربيعي(*)

صغيرتي دجلة..

لم أعتد التحدّث إليك عن طريق الرسائل، لكنّني اليوم وجدت نفسي بحاجة إلى مخاطبتك عبر رسالة، فالكلمات التي ننطقها تظلّ ترفرف بأجنحتها الغضّة مثل الفراشات، ثمّ سرعان ما تختفي لتختبئ في مكان ما من الذاكرة، وقد يطويها النسيان بخيمته الفسيحة، بينما الكلمات المكتوبة تظلّ منقوشة على وجوه الأوراق المبتسمة للأزمنة القادمة، لتفتح أفاقا أخرى، وتطرح أسئلة سرعان ما تتحوّل إلى قلادة على جيد المعرفة، ففي البدء كان السؤال الذي مثّل مفتاحا لولوج مدن المعرفة التي كانت الكتابة بوّابتها.

فالكتابة سؤال مفتوح، وفضاء معرفي، وجمالي، وفعل استمرار يقاوم الفناء، وفي قصة سيدنا موسى مع الخضر (عليهما السلام) تؤكد أن العلم يبدأ بالسؤال المعرفي الذي يجرّ إلى الشغف بتوظيفها في خدمة المجتمع، أو الأجيال الجديدة، وهكذا ظلّت أسئلة جلجامش في الملحمة الشهيرة عن سرّ الخلود تصمّ أذان الوجدان الإنساني منذ أربعة آلاف سنة لتزحف على أوراق الشعراء!

(*) شاعر وكاتب من العراق يقيم في سلطنة عمان.

لقد حفظت كتب الأدب العديد من النصوص التي ما نـــزال نردّدها، وسطّرت كتب التاريخ الكثير من الأحداث التي مرّت بالعالم منذ أقدم العصور، ونقلت كتب العلوم الكثير من المعارف، فالتدوين حفظ لنا إنجازات الأقدمين وأوصلها لنا، لنقرأها، وندرسها جيّدا، ثم نضيف عليها، لتستمر عجلة التقدّم، والبناء الحضاري، والتدوين يتمّ من خلال الكتابة، وإذا كان التدوين غاية، فالكتابة وسـيلة، لأننـا نستخدم الكتابة في تدوين أحداث الماضي، والنظريات، والأفكـار الإبداعية.

إن العالم الحديث، قفز قفزات واسعة في التقدّم العلمي، وهـو يدين لكلّ ما تحقّق من تقدم علمي وتكنولوجي للأدباء، فالكثير من الاختراعات كان مجرّد أفكار خطرت بأذهان الأدباء ثم جاء العلمـاء فحوّلوا أحلام وخيالات الأديب إلى حقيقة، ففي كتاب (الف ليلـة وليلة) يرد ذكر (بساط الريح) التي تطوّرت لاحقاً، فكانـت بـذرة لفكرة المنطاد ثم الطائرة، وفكرة الأطباق الطائرة ظهرت في الأدب ثم تحولت إلى مركبات فضاء.

فالعلم والأدب وجهان لعملة واحدة.

وينبغي لكلّ كاتب المشاركة في الأنشطة الثقافيـة والمجتمعيـة، فبدونها تصبح الكتابة عزفاً في قاعة بلا جمهور، فالتواصل مع المجتمع ضروري لمعرفة مشكلاته، والوقوف عليها، مع إنّ الكاتب يحتاج بين وقت وآخر للخلوة الإبداعيّة الاختياريّة التي تتيح له القـدرة علـى التفكير، والتأمل، ومراجعة الذات، وصقل الأسلوب عن طريق تمارين الكتابة، لأنها تمرين مستمر، فالكاتـب كالرياضـي يمّـرن عقلـه، ووجدانه، ومهاراته، من خلال كتابة الفكرة أكثر من مرة، وتجريب

أكثر من أسلوب، فالكتابة (ورشة) فردية تقوم على الإبداع، والتطوير للأساليب، وتصفية وتنقية الألفاظ، واختيار النوع الأدبي، فقد تأتي الفكرة بصيغة نص شعري أو مسرحي، أو مقال أدبي، وربّما على شكل تغريدات بـ (تويتر) وبقيّة مواقع التواصل الاجتماعي، والمهم هو اختيار فن الكتابة المناسب للفكرة التي لا تحدّد بوقت معيّن، ولا بزمن محدّد.

ولكن قد تسألين يا صغيرتي: ما الذي يجنيه الكاتب من فعل الكتابة؟

وأجيبك: للكاتب دور في تغيير المجتمع، وهذا ما يُسمى بالنموذج الإصلاحي الذي يسعى لإصلاح مجتمعه كرفاعة الطهطاوي، أو يستخدم الكتابة في وضع قواعد ونظريات فلسفية كبرى ورؤى بهدف تغيير واقع الإنسانية، كالنموذج الفلسفي الذي ضمّنه أفلاطون في كتابه (الجمهورية)، وواجب المثقف اليوم أن يكون شموليًّا يجمع بين إصلاح مجتمعه الذي يعيش ضمنه، والمجتمع الإنساني الذي يحيا في محيطه.

ولا ينبغي أن نهمل الوظيفة الجماليّة للكتابة التي تسعى إلى الرقيّ بأسلوب الحوار، والبحث عن الجمال في المعنى، والقدرة على الرقي بالجدل العقلي بعيدا عن النقاش العقيم، فالمغايرة والاستثنائية والابتكار، أساليب جمالية داخل اللغة، ومن خلالها يمكن ابتداع أشكال من الفنون، والكتابات المغايرة لما سبقها.

وقد يتبادر إلى ذهنكِ يا بُنيتي سؤال: ما الذي تصبو إليه من الكتابة؟ وهو سؤال بسيط، ولكنه يحمل معاني أكبر من طفلة في السابعة من العمر، فأجيبك: كلّ إنسان يضع هدفا له وراء عمله،

فالبعض يسعى لنيل الشهرة أو المنـــزلة الاجتماعيّة الرفيعـــة، لكـــنّ الكاتب ينبغي أن يكون صاحب رسالة إنسانيّة، يضع أهدافا أبعـــد، ويكون دوره أكبر، لأنّه يسعى من خـــلال الكتابـــة إلى التـــأثير في الآخرين في لجّة الأحداث، من خـــلال بـــثّ رســـائل إصـــلاحيّة، وأخلاقيّة، وجمالية، والكتابة لا تخلو من متعة ودهشة، ولهذا عنـــدما أتوقّف عن الكتابة تغمرني مشاعر سلبيّة، وإحســـاس باللاجـــدوى، والوقوع في فخّ التكرار، والرتابة، لذا أعمل جاهداً لاسترداد عـــافيتي النفسيّة عن طريق معاودة الكتابة.

هل أعجبك أن تكوني كاتبة؟

جميل أن تكون لك هذه الرغبة، ولكن طريق الكتابة "صـــعب وطويل سلّمه" كما يقول الحطيئة، ولن تسلكيه إلاّ من خلال المداومة على القراءة، وأذكر أنّ أحد المعلّمين قال لي بعـــد أن اطّلـــع علـــى محاولاتي الأولى "اقرأ، ثمّ اقرأ، ثم اقرأ، ثمّ اكتب"، حين سمعت تلـــك النصيحة تألّمت، في البداية، ولكنّني، عندما عملت بها، وواظبت على القراءة وفق جدول مكثّف، وجدت أن قدرتي على الكتابة، بـــدأت تتقدّم، ومغالق المعاني بدأت تتفتّح، وهناك مقولة قرأتها في طفـــولتي تشير أن للقراءة ثلاثة مصادر هي: قراءة الحبر، وقراءة الذات، وقراءة الكون، فإذا التبس الأمر عليك أوضّح أنّ قراءة الحـــبر، تتمثّـــل في الكتب، وهناك علاقة متينة بين القراءة والكتابة يمكن وصفها بالعلاقة التبادلية التي تعمل نوعا من الإثراء اللفظي، والثقـــافي، والتوظيـــف المعرفي، أي توظيف المعلومة في النص الإبداعي، وقد استفدت كثيراً من قراءاتي للتاريخ، والأساطير القديمة، في نصوصي، بخاصة الموروث الأسطوري لحضارة بلاد الرافدين، والكتب المقدّسة، وعلى رأســـها

القرآن الكريم، وكتب التراث العربي كدواوين المتنبي، والبحتري، وأبي نؤاس، وابن الرومي، وأبي تمام، وكتب السرد كالف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والأدب العالمي كروايات: فكتور هيجو، ودوستويفسكي، وتشيخوف، ومكسيم غوركي، وتولستوي، وأشعار لوركا، وبابلو نيرودا، وأراغون والشعر المعاصر كدواوين الجواهري، وبدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي ومحمود درويش ونزار قباني.

أما قراءة الذات فهي قراءة النفس، وما تضمره من مشاعر، ومواقف تجاه الأشياء، وما تنطوي عليه من ذكريات، وتجارب الطفولة، والخبرات السابقة، أمّا قراءة الكون فتتمثّل في السفر والعمل والتجارب الشخصية، والأزمات السياسية والاجتماعية التي يمرّ بها المجتمع وتنعكس على حياة الكاتب وتؤثّر به.

لذا اقرأي كلّ ما يقع بين يديك، وشيئاً، فشيئاً ستتطوّر لديك ملكة الكتابة، فتقبضين على أدواتها، وأهمّها اللغة، والأفكار، والخيال، والصياغة التي تتمكنين منها، من خلال التدريبات على أعادة بناء الجمل، واختيار الألفاظ المناسبة، والأساليب المشوّقة، والأهم من كلّ هذا أن تحدّدي هدفاً سامياً لك وأنت تسلكين طريقاً يحتاج منك إلى صبر، وبحث عن أفكار مبتكرة بعيدا عن التقليد، والأفكار المتكرّرة، والألفاظ المهجورة، لتتمكني من إضافة فكرة جديدة إلى عالم الإبداع من خلال نموذج يتّسم بالجدّيّة، والتفاعل مع القرّاء، مغاير لما هو سائد، فالإبداع يشترط الإجابة عن سؤال: كيف تكون مختلفاً ومبتكراً دون الوقوع في أسر الرتابة، والتقليد، فإذا تحقّق هذا الشرط ضمن النصّ بقاءه، وحجزت لاسمك مكانا في الذاكرة الثقافيّة.

إلى فتاتي الصغيرة نجلاء

عبدالله السالم

أكملي كوب الحليب يا صغيرتي، فاللذة التي تكمن في رشفة كبيرة دافئة من حليبك الصباحي هي اللذة التي يبحث عنها الإنسان منذ وجد على هذه الأرض ويسعى إليها بطرق شتى، مرة بالحب ومرة بالحرب ومرة بالأكل ومرة بالشرب ومرة بالصدق ومرة بالكذب، حتى وصل هوسه بها إلى البحث عنها بطرق الشر والقتل والتدمير.

استمتعي يا صغيرتي بلذتك الخاصة المسالمة دون أن تفسدي شيئا في نظام الكون.

والهدف الذي من أجله يجب أن تشربي كوب الحليب هو الهدف الأساسي لمجيئنا إلى هذا الكوكب، هدف الحياة الإيجابية والعمل وإكمال رسالتنا في إعمار الأرض بكل ما هو مفيد.

لا تصدّقي يا صغيرتي هؤلاء البشر الذين نراهم كثيراً على شاشات التلفزيون وفي الأخبار وفي وسائل التواصل الاجتماعي وهم يوهموننا أن ما يفعلونه من شرور ودمار ورعب هدفه الحفاظ على الحياة والخير والسلام.

إنهم يا صغيرتي مشغولون بتحقيق أهدافهم الخاصة، أهدافهم الجشعة في السلطة والسيطرة، ونسوا الهدف الكلي لوجود الإنسان

في الأرض، ممارسة الحياة والحفاظ عليها، الحياة الكريمة النقية من الأنانية والاستغلالية.

أكملي كوبك كي تكبري لحظة، لحظتين، ساعة ساعتين، يوم يومين، عام عامين، وكل فترة زمنية تمر يجب أن تكوني أكبر وأجمل وأعقل، يجب أن تعرفي معلومة جديدة عن الحليب، عن الجهاز المناعي، عن الجسم البشري، عن العائلة، عن الأرض، عن الوجود، عن الجمال، عن الحق، عن الله.

هذا هو دورك الحقيقي ككائن بشري سوي.

إن كل لحظة تمر من عمرك مقصودة، ليست عبثا يا صغيرتي، ولم تحدث في غفلة من القدر، كل شيء محسوب ومُراد، وأنفاسك الصغيرة التي تخرج من رئتيك لتعطّر روحي وأنا بجانبك هي مقصد عظيم من مقاصد الحياة.

الله لم يخلقنا يا صغيرتي في الأرض كي نتقاتل، خلقنا عرباً وعجماً وبيضاً وسوداً وأمماً مختلفة الأديان والمذاهب والمشارب والمضارب كي نتعارف، لا أن نجعل عناصر اختلافنا مواداً للتندر والاستهزاء والتعالي، ومن ثم الكراهية والصراع فالقتل.

ولتحفظي هذا يا صغيرتي لحين تكبرين، أن الناس الذين يتقاتلون الآن وحين نرى صورهم المخيفة على الشاشات وفي الأخبار وفي وسائل التواصل الاجتماعي أضع كفي على عينيك كي لا ترى الصور المرعبة، هؤلاء الناس كان كل واحد منهم مثلك الآن، كان يشرب كوب حليبه الصباحي ولديه قناعاته الصغيرة عن الناس والأرض والغاية من الحياة.

لكنهم يا صغيرتي لسبب ما ضلوا الطريق.

أنت الآن بأعوامك الستة لا تدركين جيدا ما يدور حولك، لكن اطمئني يا صغيرتي، أنت بطهرك وبساطتك ونقاء روحك من يمثّل النموذج الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان، وما هذا الصخب حولك والنزاع والشقاق إلا انحراف عن النموذج اقترفه الكبار.

ولتعلمي يا صغيرتي أن هذه الأحداث المخيفة حولنا ليست الصورة النهائية للكون والإنسان والتاريخ، إنها ظروف مؤقتة تتضخم فيها الصفات الحيوانية في البشر على صفاتهم الإنسانية، ثم يعودون إلى بشريتهم، بشريتهم هي الأساس والأصل، وما هذا الفسوق المفاجئ خارج الأساس والأصل إلا نزغات ونزوات تحركها ريح الشهوة، وما تلبث أن تنطفئ ويعود الإنسان إلى رشده.

فعليك يا صغيرتي بكل ما يقوّي إنسانيتك في داخلك، بدءا بهذا الكوب الممتلئ بالحليب الدافئ.

لا أدري متى ستقرأين هذه الرسالة، وما هي أوضاعكم حين تقرأينها، لكن مهما كانت فلا تنسي هدفك الرئيسي من الوجود، الخير والحب والسلام.

حتى لو وجدتِ نفسك اضطرارا في بيئة تفوح بالموت - لا قدر الله - فعليك أن تتذكري هدفك الذي أخبرتك عنه، عندها ستكونين في تلك البيئة الجنائزية الطبيبة التي تحاول إبقاء الحياة، أو الممرضة التي تحاول تخفيف الألم، أو داعية السلام التي تحاول إطفاء نار الحرب.

نحن من يصنع واقعنا يا صغيرتي، وحتى لو كنا لا نملك الأسباب الكافية لأن نؤثر في واقعنا الكلي فإنا نملك الأسباب لأن نؤثر في واقعنا الجزئي، العائلة والبيت والأصدقاء والحي والمدينة والبلد وهكذا.

وكلما كثرت أعداد المؤثرين الإيجابيين كلما اتسعت دائرة التأثير حتى ولو عمت الأرض بأكملها، وعندها لن تكون هناك حروب ودماء ومشاهد تضطرين عندها لوضع كفك على عيون أطفالك.

الإنسان يا صغيرتي مبتلى بالملل والطمع بالمزيد والجديد، حتى أنه بعد سنوات الطفولة التي يكون فيها كوب الحليب الدافئ أجمل ملذاته الصباحية يعتاد على هذه اللذة ويذهب يبحث عن ملذات أخرى، ويكمل طريقه في البحث حتى ولو جرب كل ملذات الحياة، وهنا تبدأ طريق الانتكاسة.

كوني واعية لهذا الأمر الخطير يا صغيرتي، وتلذذي بكل نعمة يمنحكِ الله إياها حتى ولو كانت صغيرة ومعتادة، مثل كوب الحليب.

نحن الذين نزيّن الأشياء حولنا بطريقتنا في النظر إليها، لذا حين تنظرين لصورة فنية جميلة، شخص في مكان رائع، كوخ خشبي على ضفة نهر مثلاً، فلا تحسديه لظنك أن المشهد الجميل من الظاهر كفيل بإسعاده.

لا تعلمي ربما هذا الشخص في الصورة كان يبكي لأنه للتو فقد عزيزاً، وكان في تلك الصورة يعاني من ألم شديد في بطنه، ولم يكن لديه طعام، ولا حتى كوب حليب دافئ، لذا فهو شخص غير سعيد.

فيما أنت الآن ترتشفين كوبك برشفات كبيرة ولا تشتكين من أي ألم ولم تفقدي عزيزاً للتو وتنعمين بصباح آمن هادئ في منزلك. أظن الشخص في الصورة هو الذي يحسدك يا صغيرتي.

عوّدي نفسك على الاستمتاع بكل ما هو متاح لك الآن، الحليب والدفء والصحة والعائلة وحتى كتابتي إليك الآن.

لا تسمحي لروح الضجر أن تتسلل إليك، فعندها لن تجـــدي شيئاً ممتعاً في الحياة.

وهؤلاء الذين يخدشون براءتك الطاهرة بما يخلّفونه من صـــور بشعة على الشاشات وفي الأخبار وفي وسائل التواصل الاجتماعي ما هم في الغالب إلا أناس لم يعودوا يستمتعون بكوب الحليب الـــدافئ خاصتهم فذهبوا يبحثون عن المتعة في كؤوس الدم والموت والفناء.

أعتذر إليك يا حبيبتي من لغتي القاسية الجارحة فأنـــا لم أعـــد مثلك نموذجا رائعا لما يجب أن يكون عليه الإنسان، بـــل ورّطـــوني الكبار في ألعابهم القبيحة.

بل أعتذر لعينيك المسالمتين يا حبيبتي من عصرنا وأهله الكبـــار الذين يزعجونك دوما بعرض بشاعاتهم وقبـــائحهم أمـــام عينيـــك المسالمتين.

وأتمنى لك حياة بيضاء دافئة مثل كوب حليبك الصباحي.

عن الكتاب والكتابة والعالم اليوم

عدنان الصائغ(*)

إلى حفيديَّ العزيزين: آدم وليليان

استكمالاً لرسالة صديقي وصديقكما الشاعر عبد الرزاق الربيعي إلى ابنته دجلة، أقول:

ما الذي يمكن أن يقوله أو يفعله شاعرٌ، إزاء ما جرى ويجري، لوطنه وشعبه وثقافته، بكل ما يخطر وما لم يخطر ببال.

وأين يقف كذلك، من اصطراع العالم واضطراباته: سطوة التاريخ، وأبواق السياسة، وتابو الجنس، وطواحين الدين.

لقد اختنق العالم ولم يعد له من منقذٍ أو هواء إلاّ الشعر، بوصفه أعلى درجات السمو البشري والحرية والجمال، والتمرد والتجدد.

إنها محاولة لأن يؤسّسَ الشعرُ مملكته، والتي لن يطردَ منها افلاطونَ، ولا الفقهاء والسياسيين - كما طردوه - بل لن يطردَ أحداً..

محاولة لبناء مملكة الإنسان، بعيداً عن الحروب، عن الطغاة والغزاة، والظلاميين، عن الجهل والجوع والخنوع، وعن الشعارات أيضاً.

(*) شاعر من العراق يقيم في بريطانيا

ليكون العالم - الوطن - الروح؛ واحةً مفتوحةً للخضرة والإبداع والشمس.

.. وهذا لا يتأسّس إلاّ بالحبّ الذي لا يتأسّس إلاّ بالإنسان الذي لا يتأسّس إلاّ بالحرية التي لا تتأسّس إلاّ بالوعي الذي لا يتأسّس إلاّ بالمعرفة التي لا تتأسّس إلاّ بالقراءة التي لا تتأسّس إلاّ بالكتاب الذي لا يتأسّس إلاّ بالكاتب الذي لا يتأسّس إلاّ بالحياة التي لا تتأسّس إلاّ بالجمال الذي لا يتأسّس إلاّ بالفن الذي لا يتأسّس إلاّ بالإبداع الذي لا يتأسّس إلاّ بالتجريب الذي لا يتأسّس إلاّ بالبحث الذي لا يتأسّس إلاّ بالإستشراف الذي لا يتأسّس إلاّ بالانفتاح الذي لا يتأسّس إلاّ بالأمان الذي لا يتأسّس إلاّ بالسلام الذي لا يتأسّس إلاّ بالقانون الذي لا يتأسّس إلاّ بالعدل الذي لا يتأسّس إلاّ بالمساواة التي لا تتأسّس إلاّ بالحق الذي لا يتأسّس إلاّ بالضمير الذي لا يتأسّس إلاّ بالأخلاق التي لا تتأسّس إلاّ بالتربية التي لا تتأسّس إلاّ بالتعليم الذي لا يتأسّس إلاّ بالتطور الذي لا يتأسّس إلاّ بالحوار الذي لا يتأسّس إلاّ بالفكر الذي لا يتأسّس إلاّ بالحرية التي لا تتأسّس إلاّ بالاستقلال الذي لا يتأسّس إلاّ بالإنسان الذي لا يتأسّس إلاّ.....

... وهلم جرا،

دوراناً أزلياً: صعوداً أو هبوطاً في فلك رقي الحضارات، أو اندحارها.

والخ، والخ..

....

فمثلما أرعبتني طائراتُ B52 وصواريخ التوماهوك TOMAHAWK التي كانت تجوب سماء وطني، أرعبني تقرير

اليونسكو الذي نشر قبل فترة عن حصة المواطن العربـــي من القراءة والتي لا تزيد على 6 دقائق خلال العام.

عامٌ كامل!

طيب، وماذا يفعل المواطن في بقية السنة؟ أليس أغلبها يـــذهب في اللهاث وراء اللقمة والدواء والباصات والنقاشات الفارغة وخطب الحكام؟..

وإلاّ فقولا لي أين تذهب هذه الـــ 525594 دقيقة، التي يعيشها المواطن العربـــي خلال عامه؟

وأياكما أن تعلّقا ذلك الإهدار على شماعة التلفزيون والإنترنيت والوظيفة والـــ... كما اعتدنا دائماً أن نعلّق أمورنا وأخطاءنا علـــى شماعة الآخر، وإلاّ أليس في بـــلاد الغـــرب تلفزيـــون وإنترنيـــت وموظفون... فكيف يصل مجموع استهلاك دار نشر واحدة، في بلد واحد مثل فرنسا، هي دار غاليمار؛ إلى أكثر مما تستهلكه كل البلاد العربية من ورق سنوياً!!

وماذا نفعل ببقية الورق؟ أليس أغلبه يذهب في طبع البيانـــات والكلام الفارغ وعرائض الالتماس؟

وتوقفا قليلاً عند الأمّية الثقافية التي أوصلتنا إلى ما نحن عليـــه ثم انعطفا إلى مقالة فولتير الساخرة "عن خطر القراءة الهائل" التي ترى: "إن الكتب تبدد الجهل، والجهل حارس الدول وضـــامن حمايتـــها"، لتعرفا سر ما فعله الإمبراطور الصيني شيه هوانغ عام 13م حين أحرق كل الكتب الموجودة في مملكته ليخلّص مواطنيه من وبـــاء القـــراءة، وإلى ما فعله هولاكو عام 656هـــ حين دخل بغداد ولـــوّن نهرهـــا بأحبار الكتب. ثم غوصا في عمق مقولة "ببللونيه" في كتابه "الفـــن

المتمرد" عام 1896 من أن "الجهل يصنع القانعين"، لتدركا سر ما يفعله الطغاة الجدد في ملاحقة المثقفين ومصادرة الكتب. ثم اقرأا واستقرءا وفكّرا واستنتجا خلاصةَ سر جهل حكامنا، لتدركا سر ما تفعله قوى الشر الكبرى ومصالحها في تثبيت عروشهم المنخورة ولو على جوعنا وتشردنا وأشلائنا وصفرة وجوه أطفالنا.

وهكذا كلما ازددنا نقصاً في القراءة والتعليم والتفكير والتخطيط والبحث والترجمة والانفتاح والحوار، ازداد واقعنا تخبّطاً وخراباً وألماً وظلماً وظلاماً، وضحكت علينا الأمم وطائرات التوماهوك، والخ والخ...

....

وتتّبعاً واستقراءً لكل ذلك يمكنني أن أشير هنا إلى أن واحداً من الأسباب الرئيسية لهذا الخراب، والذي لم يتوقف أمامه الكثيرون، هو: غياب صوت المثقّف، وعدم الالتفات إليه.. ويتبعه أو يحاذيه أو يسبقه التخلف والأمية والعصبية القبلية والمصادرة وتراجع التعليم وشحة الكتاب وفقره.

واخلص من كل هذا إلى أن الدكتاتورية والإحتلال وجهان سيئان لعملة صدئة واحدة، وكذلك الإرهاب والتخلّف، والتطرّف الديني والانتكاس الإقتصادي والخ من دورة الإنحدار الذي وصلنا إليه اليوم..

وتسألانني عن رؤيتي الثقافية المستقبلية للمرحلة القادمة. فأقول كما قال الشاعر اليوناني ريتسوس: "الحرية هي أولاً"

نعم.. الحرية أولاً

نعم.. الثقافة أولاً

نعم.. الوطن أولاً

.....

وتعالا من هذه الدائرة المتكاملة نستقرئ أيضاً حركة الإبداع وتطوره: سيرةً ومسيرةً، عبر العصور وعبر الأمم وعبر النصوص، لنجد وعي الكاتب أو الفنان سابقاً عصره ومخلخلاً نظام الأشياء حوله، وفاتحاً عينيه على اتساعهما ليرى كل شيء.

فليس كافياً للكاتب أو الفنان أن تكون له عينان لرؤية المشهد واستيعابه وتحليله وتصويره والكتابة عنه. لا بد له من عين أخرى لا تكتفي بالسطح بل تغور في أعماقه، تراوغ حرّاس المشهد وكهنته، تدور حوله وفيه لتراه من الداخل ومن جهاته الأربع، بكل حواسها وآلياتها.. وعلى قدر هذه العين تتدرّج قدرات النظر والبحث والاستكشاف والاستشراف والرؤية.

فيكتب بما يراه ويحسه ويعيه، بينما يظل البعض لا يرى من الأشياء إلاّ ما يُقدَّم له على الطبق، ولا يكتب إلاّ ضمن المواصفات المطلوبة...

ولهذا يعيش النص، شأن الانسان والأمم والبلدان والمذاهب والحضارات، تحدياته على المستويات كافة. فكلما عظم النص، عظمت تحدياته، وكلما اتسعت مهماته، اتسعت التساؤلات التي يثيرها وراءه.

وأقرأا تأريخ الشعر والفنون، شرقاً وغرباً، ونقّبا به، ستجدان في كل نماذجه الخالدة، نزعة حداثوية سبقت التنظيرات الحداثوية نفسها بعصور وعصور. وأمامكما: الملاحم والأناشيد والأساطير والابتهالات والأغاني السومرية والأكدية والبابلية والآشورية

والفرعونية والاغريقية والرومانية والكنعانية والفارسـية والعربيـة، ونصوص الهايكو والتاناكا اليابانية، والكوشيه واللوشـيه والتشـي الصينية، وأغاني التانغ والتنتـرا والبـوران الهنديـة، والموشـحات والدوبيت واشراقات المتصوّفة العربية، والتروبادور، والتماعات النص السريالي، واخ.

يقول الشاعر الياباني كاماكوتو، الذي تقع أعماله الكاملـة في مئتي مجلد: "لكي تدرّب كلماتك/يتعيّن أن تكيل لها الثنـاء/وعلـى الرغم من اشادتك بها/فإنها نـادراً مـا تصـدح بالغنـاء/امسـك بكتفها/مسّدها برفق/إلى أن تند تنهدة طويلة/عن الحروف اللدنة".

وإلاّ ما الذي يجعل عمر النص - شفاهياً أو مكتوباً - أطول من عمر الحجر وأكثر قدرة على قلب التاريخ والأحداث والذائقة، بل ما الذي يجعله أكثر ثباتاً وابداعاً واقناعاً من الحياة نفسها، حين ينهـدم الحجر وينفرط البشر ولا يبقى ما يؤرخ للبشرية سوى ما تركوه من نصوص وابداع.

قولي له إنه وحشنا

علیا عبد السلام

كنت في المرحلة الابتدائية من التعليم عندما احتارت أمي من سيكتب لها (الجواب).

رسالتها إلى أبي حيث يعمل في لبنان. سمعت أمي تحدّث نفسها، أذكر ولن أنسى أنّ عجز أمي عن القراءة والكتابة كثيراً ما ذهب بي لأحلام يقظة تمنيت فيها لنفسي أماً غير أمي، أم تعرف الكتابة والقراءة ولأنني أحب أمي كثيراً جداً فكرت كيف أساعدها.

- أمي، سأكتب لك الجواب.

نظرتني أمي بوجهها الجميل باسمة العينين: تعرفي؟!

- طبعاً يا أمي أعرف، أنا شاطرة في المدرسة.

قالت: هقول وانتي اكتبي زي ما هقولك.

- حاضر.

كتبت كلام أمي كله بداية من "بسم الله الرحمن الرحيم" حتى تفاصيل صرف المبلغ الأخير الذي أرسله إليها وأننا جميعاً بخير وصحة جيدة، حتى انتهيت نظرت أمي تحت قدميها قائلة: اكتبي له إنه وحشنا.

هنا كنت فهمت ما تريده أمي هنا بدأت قصتي مع الكتابة والقراءة معاً.

بعد فترة قصيرة عاد أبي بالسلامة وبعد استقراره سأل أمي عمن كتب لها آخر رسالة.

قالت: "بنتك علية".

لا يمكن نسيان نظرة الفخر التي رقصت في عيون أبي.

ماذا لو لم أكتب لأمي هذه الرسالة؟

ماذا لو لم تخفض أمي رأسها في أسى بالغ القسوة وتضيف: "قولي له إنه وحشنا".

هل كنت لأكتب؟

هنا ترسّخ في وجداني شعور واحد تجاه الكتابة كبر معي وكبرت به:

الكتابة عطف على محروم.. دفاع عن مظلوم... الكتابة استغاثة من بعيد لبعيد.

بها نعرف الزمن ونكتشف أماكن جديدة.

من لم يتعلم يحتاج دائماً من يقرأ له العنوان ويكتب له الجواب.

إنه الحرمان في أبشع صوره وأقساها على الإنسان.

لهذا وبفضل فخر أبي بأول ما سطرت من كلمات دفاعاً عن أمي ضد الفقد المحزن وهذا الشوق الذي تعاني منه صامتة دون شكوى.

أدركت بوعي الطفلة جوهر الإبداع كما أحبه.

هو انحياز فطري ضد الألم والظلم في جميع أحواله وأبسط أشكاله.

بداخل كل كاتب حتى الفلاسفة وعلماء الفيزياء والطب وكل باحث بالضرورة غاية خالصة شديدة الصفاء والصدق، نور لا ينقطع بل قل شمس لا تغيب.

لماذا؟

إن روح الكاتب النافرة ضد الظلم والتعاسة؛ روحه الحالمة بالعدالة الواعية بالجمال صارخة بما يجب أن يكون وما ينبغي على الحياة أن تكون عليه وتغيير الواقع الذي هو دائماً وعبر العصور صراع مخزي بين الخير والشر؛ تلك الروح العطوفة على الإنسان المحبة للوجود تقاوم وتبقى.

كيف كان لي أن أفهم نوازع روحي وأفكار عقلي دون خلود الأرواح الطيبة من الكُتّاب.

من سجّلوا نوازعهم لتغيير واقعهم بضمير مخلص النوايا صادق في إيمانه بجوهر الكتابة: نحن لا نكتب بل ندافع عن أنفسنا.

من خلّدهم التاريخ، من عاشوا كتباً أنيقة في المكتبات وبين يدي قارئ بالضرورة لديه شغف المعرفة ولديه تساؤلات لا بد أنّه رافض للواقع ويبحث عن طريق.

لهذا كان هناك دائماً المضلّل من الكُتّاب من سفه الحلم، وزوّر الوقائع جنباً إلى جنب بنفس الأناقة داخل نفس المكتبة.

وحده الضمير هو ما يقود الكاتب الذي يشكّل الوجدان والعقل.

تتحول الكتابة لديه لفعل وعمل ممارسة يومية متفاعلة.

كما الشاعر والكاتب هناك الكيميائي والطبيب والمخترع. ألسنا جميعا سواء أكُنّا أخياراً أو أشراراً نؤثر في الوجود ونشكّله؟

فكيف بدون هذا المبدع الثائر نواجه طغاة العصر ونقضي على الظلم والحرمان.

أليس الهوس بمعرفة كل حقيقة هو المسئول وحده عن فشلي، نعم لم أكن بين صفوف الكتّاب الناجحين، اخترت طرقاً خالية من المارة واجتزها وحدي.

لم أترك لشهوة النشر مكاناً في نفسي، أليست الكتابة تشذب الروح وترتقي بالعقل؟

أليست الجسارة شرطاً من شروط التخلي والاستغناء؟

صدّقت ما قرأت، بل استولت على روحي تماماً كل كلمة تقول بالجمال الذي هو حربي التي أعيشها مدفوعة برغبة وحيدة أن يسعد كل البشر على الأرض وأن تنمو الأشجار عالية وتصفو السماء.

ماذا تريد أن تعرف؟ كيف أقول لك أنّ الكتاب والكتابة أنواع، وأنّي أكثر الأنواع خطورة وحماسة، لم أرضَ بواقع قد حوّل الشاعر إلى متأنق طيب الرائحة يقود سيارته في اتزان، صوته خافت رقيق ومستعد لاعتلاء كل المنصات لتسلّم الجوائز.

اقرأ النص التالي:

من القبح أن أعيش تحت أقدام أمي، القسوة والأقنعة البريئة يتبادلان قيادتي،

أجد راحة ما حين أحكي عن موت أبي،

كبرت من الكراهية النقية حيث لم أتعلمها ولدت منها فحرصت على مص الدماء،

إنها قوة إنسانية عظيمة تمنحني السعادة،

بسبب ذلك كل سعادتي موت من أحبوني ميتة شنعاء،
لسبب غامض حين أغرز في الباب مفتاحي أتعلم الوحدة،
أتخيل صديقاً يطعم أسماكي ويغيّر ماء الورد وينتبه لغلق الشباك في الشتاء
حيث الرياح الشديدة توهن النبات بالطبع، لا أحد بالداخل
بالتأكيد كنت قاسية للغاية،
أغلق الباب وأبتسم للأسماك المشرفة على الموت والنبات البائس،
وللملصقات على الحائط أتشمم رائحة جسمي، قد يأتي أحـــد كالهواء أزرق من الليل
يشبه هذا العفريت الذي أحببت، ألاحظ أنني مـــن حـــدائق لم تمس و لم يدخلها مجنون واحد
وأرى أنني أشبه صندوقاً نمت عليه طحالب البحر ملقى علـــى شاطئ مزدحما بصانعي
التحف، وألاحظ أنني مطوية على سر لا يخص أحد وأنّ الفراغ المضيء بهجة تخص
الآلهة وأنني إنسان كالهواء.
وجدت طريقي، حيث لن يتشبه بـــي أحد سأكون طائراً يحلّق
بالقرب من بيت مهجور وفي خيبتي سأقلّد فتاة صغيرة تتـــوهّم أنها صخرة وأحراش
وحيوانات مفترسة، وأنّها خوف لن يبلغ منتهاه وأنّها ظلمـــة خالصة من أي توجس وأنّ
السخونة التي تعتلي ركبتيها دم، وأنّها فتاة صـــغيرة تحـــب أن تلعب.

هكذا:

لم تكن الكتابة عندي هماً في حد ذاته بل متخلية عن كل تقليد وعادة أفنيت عقود باحثة

عما سأكتب.

الكتابة، رسالة وليست كل الرسائل بالضرورة طيّبة هكذا

كان عليّ التجرد الكامل من كل نعم الحياة ومتعها والرحيل عن كل مكان حتى

كرهت الأقلام والورق.

رسالتي كشاعرة لم تحتملها لغة ولا تنطقها عبارة هكذا شيء ما بيني وبين نفسي ظل

يدفعني نحو الاستقامة. فلا طاقة لدي بغش قارئ، أنا كاتبة لم تعد تستطيع أن تخادع

وليس بي طمع، لهذا لم يعد كافياً أن نكتب عن الظلم والحرية، بأي عقل نستمر؟

كيف أكتب في روعة الحرية تحت نير الاضطهاد؟ لهذا كنت أنا القصيدة تمشي على

الأرض، في كل تفاصيل حياتي لم يكن هناك فاصل، أنا الشعر قصائدي هي تلك

اللحظة المتكررة عندما الناس من حولي يعيدون على مسامعي كلامي وكأنه يخصهم،

هنا أشعر بالرضا والخوف ولا أعرف من أنا.

كي لا يعيد التاريخ نفسه

غسان شبارو

عند الفجر وصلني الخبر السعيد، لقد أصبحتم خمسة أحفاد، اثنان يحملان الجنسية اللبنانية فقط، والثلاثة الآخرون يحملون جنسيات غربية إلى جانبها. هذا ما جنته علينا الحروب المفتعلة بين أبناء الوطن الواحد، فدفعت أبناءه للبحث عن طوق نجاة لأطفالهم ينقذهم ساعة هبوب عواصف الموت العبثي، عبر الحصول على جنسيات دول أجنبية يلجؤون إليها عند الحاجة.

لكن خشيتي عليكم من جنسياتكم الرديفة هذه أنها تحولت إلى عامل يبعدكم عن وطنكم ولغتكم العربية. فالمدارس التي ترتادون تعتمد الأجنبية لغة تعليم أساسية، أما العربية فهي تحصيل حاصل، ولولا إصرار الدول المعنية وحرصها على تعريف الطلاب المسلمين على دينهم لما أُدرج تعليم العربية ضمن مناهجها. فالمدرّسات الأجنبيات يحدثونكم بلغتهن، وبسبب تعدد جنسيات أترابكم التلاميذ تحوّلت اللغة الأجنبية إلى اللغة الأكثر تداولاً لديكم، مما جعلكم تستسهلونها وتحملونها معكم إلى بيوتكم لتحوّلوها إلى لغة التخاطب مع أُسركم. وهنا يكمن الخطر حيث تتنازع أهاليكم فكرتان، إحداها تدفعهم لمجاراتكم والتحدث بالأجنبية كي لا يتأثر

عطاءكم المدرسي، أما الأخرى فتحضّهم على التعاطي معكم بالعربية حفاظاً على جذوركم، مما يخلق لديكم تشتتاً يدفعكم في أفضل الأحوال للتحدث بلغة عربية عرجاء، أما القراءة والكتابة فحدّث ولا حرج.

في عيد الأضحى الفائت كنتم (حفظكم الله) لا زلتم أربعة، ورغم هذا أشحتم ستائر الصمت التي تخيّم على المنزل بضجيجكم المحبّب ولغتكم العربيزية المضحكة المبكية. لا شك أنها مسلية، ولكن هل ستمكنكم من التعرّف إلى المتنبي والمنفلوطي وطه حسين ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن منيف أو إلى أيٍّ من مبدعي العربية؟ فكيف لأُمةِ (إقرأ) أن تستمر جيلاً إثر جيل إذا استمرت هجرتكم عنها، وهل هذه هي الغاية الحقيقية من وراء مآسي القتال والحروب المفتعلة التي تتنقل من بلد عربي إلى آخر؟

وكأن هذه الجبهة المفتوحة عليكم وعلينا على الأرض لا تكفي، فاستعرّت جبهة الفضاء السيبراني ليحملّكم تسونامي الإنترنت والاتصالات وترددامهما إلى الشاشات الصغيرة تنهلون منها ما هب ودب، وهاكم تتنافسون في ألعابها وتتابعون الأفلام وتتعرفون على الأصدقاء عبرها، بينما آباؤكم وأمهاتكم منهمكون وراء شاشات الآيباد والآيفون. ورغم اقتناعي واحترامي للعطاءات الجمّة والمبهرة التي تقدمها هذه التكنولوجيا، ولكنني أخشى عليكم من محتواها واللغة التي تُقدَّم بها. فالقوانين التي ترعى ما يشاهده الأطفال والناشئة العرب شبه معدومة، وهم معرّضون ولو عن دون قصد للوصول إلى مواقع إباحية و/أو عنيفة ناهيك عن مواجهة لغة عربية غير سليمة إن لم تكن بذيئة أو عدوانية وهي التي تكتسح الإنترنت ومواقع التواصل

الاجتماعي حالياً، ناهيك عن الأخطار الناجمة عن التواصل الاجتماعي المقنَّع.

في إطار هذه الصورة أراكم قد تحولتم إلى إحدى ضحايا جنون العنف الذي يعصف بالأمة، ففي حين يُقتلُ أقرانكم جسدياً، يُعمَل على إلغائكم من سجلات الوطن. ورغم قول جبران خليل جبران "أولادكم ليسوا لكم أولادكم أبناء الحياة"، فواجبنا نحوكم في أعماركم الغضّة ونحو أوطاننا في هذه المرحلة المفصلية من تاريخ الأمة، أن نسعى إلى درء الأخطار عنكم والدفاع عن مستقبلكم، لذلك أتوجّه إلى من يتولون مواقع المسؤولية في وزارات التعليم العربية برجاء إلزام المدارس الأجنبية لديها فرض تعليم اللغة العربية لتلاميذها العرب الذين يحملون جنسية مزدوجة بنفس المستوى الذي تعلّم فيه اللغات الأجنبية، وإصدار قوانين ترعى الملاحة الآمنة في لجة الإنترنت والاتصالات لأجيالنا الصاعدة.

وأعود إلى أترابكم، أطفال الأمة الذين يعانون شتى ضروب الشقاء والذل من جوع وبرد ومرض وإهانات وتشرد وتشتت أُسري ونفسي ليدفعوا ضريبة تضارب مصالح الدول الكبرى على أرض أوطانهم، فأطلب منكم العمل في مدارسكم على الإضاءة على الظلم الذي يصيب أطفال العرب، عبر العمل على إطلاق حملات جمع التبرعات لدعمهم والمحافظة على جذوة استنكار واقعهم ورفضه مشتعلة لدى الرأي العام العربي والعالمي. هذه هي النتيجة المباشرة المرجوة، أما الهدف الأسمى والأهم فهو أخذ العبرة عبر تلمُّسكم مدى الأذى الذي يصيب الأوطان عندما تُقحم نفسها في لعبة الأمم مما يحوّلها إلى دمية بين أيدي الكبار، وكي لا يعيد التاريخ نفسه ويضرس الآباء من جديد ويأكل الأبناء الحصرم من جديد.

اللغة لسان الأم/
الأرض قبل ميلاد المحاكاة

مجاهد عبد المتعالي

- أمي كانت قبل نومي تقرأ لي قصص الأطفال بالفرنسية وأنا صغير... ما الذي كانت تقرأ لك أمك يا نورس؟ لم يجب نورس على تساؤل يعرب بل سكت وهو يستذكر كلمات أمه عندما يأوي لفراشه وهي تقول: ردِّد ورائي يا نورس: اللهم يا ربنا... اللهم يا ربنا... إنّا نسألك.. إنّا نسألك... أن تعطينا البصيرة والنور... أن تعطينا البصيرة والنور... لنقرأ السطور... لنقرأ السطور.. ونفهم ما بين السطور... ونفهم ما بين السطور... ونبصر ما وراء السطور... ونبصر ما وراء السطور... اللهم يا ربنا... اللهم يا ربنا... افتح قلوبنا لحروفك... افتح قلوبنا لحروفك... في هذا الكون الفسيح... في هذا الكون الفسيح... وعلّمنا يا رب... وعلّمنا يا رب... جمعها حرفاً حرفاً... جمعها حرفاً حرفاً... كي نقرأ كلماتك... كي نقرأ كلماتك... ونعرف أسرار الكون... ونعرف أسرار الكون... وكنوز الحياة... وكنوز الحياة.... آمين... آمين.

هكذا كانت أم نورس (ربة المنزل) تختم ليلة ابنها قبل النوم مع قبلة على جبينه دون أي حكاية أو قصة.

عاد نورس وقال لصاحبه: وما هو الفـــرق يـــا يعـــرب بـــيني وبينك؟

لم تعرف الفرق يا نورس حتى الآن! أنا أتحدث الفرنسية منـــذ نعومة أظفاري، والآن أتحدث الإنجليزية والإسبانية، بالإضافة طبعاً إلى العربية.

هز نورس رأسه وقال: الآن فهمت لماذا عندكم مكتبة أكبر من رفنا الصغير بصالة بيتنا، أظنكم تتبادلون الكلام بأكثر مـــن لغـــة في منـــزلكم، أبـــي يا يعرب ما زال مع أمي منذ خمسة وأربعين عـــام، ولم يعودوا يحتاجون حتى الكلام، ينظر في عينيها فتبتسم وتعرف مـــا يريد والعكس، أظن السر يا يعرب ليس في تعدد اللغات، السر يكمن في المعنى والإحساس الأعمق لأي لغة في الدنيا، حتى ولو كانت مجرد لغة عيون أو إشارة.

كم لغة عندك يا نورس؟ لا شيء يذكر يا يعرب، لأني لم أعدّها حتى الآن، ولم أنته من قراءة كل الكتب العربية بالإضافة إلى الكتب المترجمة إلى العربية عن أقصى بلاد التيبت إلى أقصى البيرو من اللغـــة اليابانية والصينية والروسية والتركية والهندية والفارســـية والألمانيـــة والفرنسية والإسبانية والإيطالية واليونانية والإنجليزية، كل هذا تمـــدّد أفقي يضرب في الآفاق شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً... وطبعاً يا يعرب لم تقرأ كتاب (مغامرة العقل الأولى) عن اللغة الأوغاريتية في بـــلاد الرافدين، وتاريخ الكنعانيين ومفرداتهم القديمة كي تدرك معنى التمدد المعرفي بشكل عمودي يحفر في الأرض ويحاول خسق السماء.

- كل هذا يا نورس قرأته بلغة واحـــدة مـــن رف كتـــبكم الصغير!؟ كيف لو أنك تعرف لغتين؟!!

- لا... لكني أسترق الوقت من أبـــي ودكانه، فأختلس بعض الراحة بالقراءة في المكتبة العامة، وكم تمنّيت أن أكون مثلك أنطـــق بأكثر من لسان يا يعرب، لكن أمي ليســـت مثـــل أمـــك خريجـــة السوربون، أمي كانت خريجة الدياسبورا الفلسطينية، حتى تزوجـــت أبـــي، لكنها قالت لي: إن تفوّق الناس عليك بتعدّد اللغات لمعـــنى واحد، فتفوق عليهم بتعدد الرؤى في لغة واحدة، وقد فعلت وبدأت أستكشف لغات تحتاج قراءة بحروف من بصيرة فأنا أذهب لمعـــرض فنون تشكيلية هنا بنابلس وأقف أمام اللوحات أحاول تعلم لغة اللون في مقاصد الريشة، أحياناً وقبل الغروب أقف أمام جبل جرزيم متأملاً تعاقب البشرية وخلاصاتها من خلال ثلاث بقايا لثلاثـــة عصـــور في جبل واحد اجتمع فيه معبد زيوس وكنيسة بيزنطية ومقام إســـلامي، كل هذا في جبل واحد بأسماء متعددة فمرة نسمِّيه جبل جرزيم ومرة الطور ومرة البركة، ما زلت يا يعرب أتعلّم لغة الموج على خطـــوط الشاطئ، وفي العمل مع أبـــي بالدكان التقي المشترين لأتعلم منـــهم لغة الإنسان بحروف الجسد وعلم الصوت ودلالته همساً وصـــراخاً، وعند عودتي ليس عندنا سيارة كما عندكم... لكني أقضي الطريـــق أتأمل الشوارع والمنازل فأتعلم لغة المدينـــة في التـــواءات الرصـــيف وتجاعيد الجدران، انظر هنااك يا يعرب... هـــل تـــرى.. جداريـــة نابلس، وهناك... هل تعرف هذه الوقفة؟ هل هي وقفة صابونجي أم وقفة فلاح أتعبه جمع الزيتون؟ لا تعرف يا يعرب!؟ اطمئن لا ذا ولا ذاك، إنها وقفة بائع ممنوعات ينتظر الزبون، ههههه، انظر لهذه السيدة تنتظر السائق... مسبحتها بيدها... إنها تريد أن تقول كلاماً كـــثيراً عن تقواها... إنها عطشى للبوح والنواح... مكبوتها بعـــدد حبـــات

المسبحة مضروباً في سبعين، لكنها تجيد ترتيب القلق كي تبقى قديسة تحمل مبغاها في داخلها، خيرٌ من بغي تحمل محرابها بداخلها، فالمهم عندها ما تراه أعين العابرين، لا ما تراه قلوب العارفين، فالعارفين فقط هم من يعرف محراب رابعة العدوية.

- يا يعرب..

- نعم..

- أسمعني مطرباً لا أعرف لغته، سأخبرك هل يملك إحساساً صادقاً أم لا، ليس ضرورياً أن أعرف معنى مفرداته، الضروري فقط أن أشعر بصدق الإحساس في قولها، وقد تعلمت هذا يا يعرب من تمييز حروف بكاء الطفل مع أمه عندما يتبضعان في دكان أبي، بدأت أميّز بين نحيب البكاء دلالاً وطلباً للحلوى وبين بكاء الفاقة ووجع الحاجة، بدأت أميّز بين صوت القارئ المستأجر للصلاة في رمضان، وبين صوت عجوز نصف أمي يتمتم بالآيات قبيل إقامة الصلاة في المسجد... صرت أعرف الفرق بين الضجة يوم الأحد بالوصايا العشر، وبين العمل بها بصمت في كل الأيام، الله يا يعرب لو تعرف كم تعلمت من لغات، ولهذا فما زلت أسمع بإحساس عميق (لارا فابيان) وهي تغني، وأنا لا أتحدث الفرنسية، هل رأيت الآن كم حرفاً عرفت وكم كلمة أتقنت يا يعرب؟

يرد عليه يعرب: ce qui touche le cœur se grave dans la mémoire[1] يصمت نورس لوهلة ثم يقول: سأخبرك بشعوري تجاه كلماتك هذه... لقد كنت تقولها وأنت تنظر في عينيّ بكل محبة وودّ، ولهذا بوسعي يا يعرب أن أقول لك بكل ثقة: سأظل أقرأ بلغتي

---

1 بالفرنسية وتعني: ما يلمس القلب يبقى في الذاكرة.

العربية، وسأتعلّم منك ألسنةً أخرى، كي أكرر المعنى بـأكثر مـن لسان، ولكن بوصلتي ستظل وفيَّة لدعاء أمي قبل النوم باحثـاً بـين الحروف المتناثرة هنا وهناك عن الكلمات الصادقة، ففيها فقط يكمن سر الكون وكنـز الحياة.

الصّبي الكبير

محمد الرفرافي

إلى كلِّ طفلٍ وطفلةٍ، صغيريْن في السِّــــن.. لكـــن كـــبيريْن في عيْني

إليكُما حِكايتي هذهِ مع الصَّبـــي الكبير:

ذات يوم قرّرتُ أن أكتبَ عن نفسي كيف كنتُ طفلاً صغيراً؛ فَفَكّرتُ أن أزورَ أوّلاً دار أجدادي في مدينة تونس العتيقة، وهي التي وُلِدتُ وعِشْتُ فقط طُفولَتِي فيها، ولم أزرْها ولم أرَ أقاربـــي فيهـــا منذ سنواتٍ عديدة.

وحين وصلتُ طرقتُ البابَ مِراراً لكن لا أحد فتحَ؛ وفجــأةً انفرج البابُ قليلاً.. فدفعتُه ودخلت.

وما أن وصلتُ إلى فِناء الدّار حتّى لمحتُ صبيّا لا أعرِفُه وكـــان يلعبُ الكرةَ بمُفْردِهِ.

وما أن رآني حتّى توقّفَ عن اللّعِبِ، وتســـمَّرَ في مكانـــهِ دون حِراكٍ.

سلّمت عليه وسألتُه:

– هل أنت مَنْ فتحَ لي بابَ الدّار؟

فلم يُجِبْني!

سألته عمَّنْ يكون، فَلمْ يُجبْني أيضاً..

سألتُه إن كان في الدار أحدٌ غيره، فأصرّ علـــى السُّـــكوت، ثم تركني وذهب إلى إحْدى غُرَف الدار، فَتَبعْتُه.

في الغُرفة، جلس خلْف مكتبٍ صغير وبدأ يَخُطُّ على كُــرّاسٍ مَدْرسيٍ..

لم أتمكّن من رؤية ما كتبَه أو رسمه لأنّه سُرعان ما أغلق الكُرّاس ودسَّهُ في دُرْجِ المكتب، وخرج ضاحكاً من الغُرفة إلى الفِناء، فتَبِعْتُهُ.

سألته:

- ما اسمك؟

فسألني:

- وأنتَ ما اسمك؟

قلتُ:

- محمّد

فقال:

- وأنا كذلك

ثم ضحك مرّة أخرى وابتعدَ..

وفي اللحظة التي دخلتُ فيها إلى إحدى الغُرف الأخرى مُنادياً: هل هناك أحدٌ في الدار؟.. سمعْتُ صوْتاً بعيداً يقول:

- نعم... هُناك أنا في الدّار..

كان ذلك صوت الصّبـــي قادماً من الطابق العُلْوي الذي صَعَدَ إليه مسرعا وعلى غفلة مِنّي.

لحقتُ به لأني خشيت من أن يُغامر بالصُّعود بمُفْرَدِهِ إلى ســـطْحِ الدار وهو ما كانت تَنْهاني عَنْهُ أمّي وأنا صغير.

ولم أطمئنْ إلاّ بعد أن رأيتُه واقفاً قُرْبَ حافّة السّطح صامتاً ومُتأمِّلاً في الأفُقِ..

اقتربتُ مِنه وكرّرْتُ عليه نفس الأسئلة:

لماذا أنتَ وحدَك في هذه الدار؟ أين ذهب الآخرون؟

لم يكترِثْ لأسئلتي، كان يَنْظُرُ شاخصاً في الأفق، وفجأةً سألني:

- لماذا في النهار تكون السّماء زرقاء؟

فأجبتُه:

- ليس لديّ وقت كافٍ لكي أشرحَ لكَ ذلك.. لكن، هل تَكرَه اللونَ الأزرق؟

فقال:

- لا، إنّي أُحِبّه، لأنه يُذكّرني بالبحْر.. والسّماء تُشْبِهُ البَحْرَ، لذلك أشتهي العوْمَ فيها.

فسألتُه مُستغرباً:

- العوْم في السّماء! كيف؟

فردّ وهو يُحرّك ذراعيْه:

- هكذا.. أنْ أطير.. لهذا يَلزمُني جَناحَان أو ربّما طائرة وهذا أفضل..

ثم غيَّر الموضوع قائلا:

- لقد حان وقتُ المُطالعة.

سألتُهُ باندهاش:

- مطالعة ماذا؟

فأجاب:

- بَقِيَ لي أنْ أقْرَأَ الفَصْلَ الأخير من قصة "الأمير الصغير"

فقلت:

- الأمير الصغير! لماذا لم تقرأها دُفعةً واحدة وهي كما أتـــذكّر ليست طويلة جدّا؟

فردّ:

- سبق لي أن قرأتُها كلّها أربعَ مرّات وحالياً أُعيـــد قراءَتَهـــا لِلمرّة الخامسة.

- لماذا؟

فقال:

- لأني أُشبه الأمير الصغير..

قلتُ:

- لكنّي أَتذكرُ أنّ الأمير الصغير قال للطيّار أنّـــه جـــاء مـــن كوْكب صغير، بينما أنتَ لم تقلْ لي مَنْ أنتَ ومِنْ أيْنَ أتيْتَ!.. طيّب وأيْن تطّالع عادةً؟

فقال:

- على مَكتبـــي تحت..

وهمَّ بالنـــزول إلى الأسفل، فَتبعْتُهُ..

لم أعد أكترثُ لِغياب سُكّان الدار التي خَلَتْ كلُّ غُرَفِهِ مِنـــهُم إلاّ واحدة في الطابق الأرضي لم أتأكّد من خلّوّها لأنّي لم أدخلْهـــا بعد؛ وبدلاً عن ذلك صِرتُ مشغولاً بالصّبـــي الذي صـــار لُغـــزاً بالنّسبة لي وقد عَرفتُ الآن أنّه ابن هذه الدار وربّما حفيداً لابن عمّي الهادي.

وبتحدٍّ سألتُهُ:

- هل قرأتَ قِصصاً أخرى غير الأمير الصغير؟

فنهض وتوجّه إلى رفوفِ كُتب في جوار المكتب وبدأ يسرد قائلا:

- هذه قصص "كليلة ودمنة" و"الحكايات والأغنيات" و"السندباد البحري" و"مصباح علاء الدين" و"حي بن يقظان" و"نوادر جحا" و"شهرزاد".. قرأتُها كلّها.

ثم واصل يسرد من رفّ آخر:

- وهذه قصّة "برق الليل" و"خيال الحقل" و"مغامرات عقلة الإصبع" و"مغامرات الشاطر حسن".. وهذه مجموعة "كان يا ما كان" وفيها "مدينة العجائب" و"الصياد الساحر" و"الصندوق الصغير" و"جزيرة اللؤلؤ" و"سلم الساحرة".. وهذه أيضا "نادية الصغيرة في فم الوحش" و"صابر المغفل الماكر" و"زياد ولصوص البحر"...

سألتُهُ:

- وهل قرأت "ألف حكاية وحكاية" التي كتبها يعقوب الشاروني؟ أو "ابن بطوطة معنا" التي كتبها العربي بن جلون؟

لم يكترثْ لِسؤالي، وقال:

- حتّى تَعْلَمَ لقد قرأتُ أيضا قِصصاً أجنبية.

وذهب إلى رُفٍّ آخر وبدأ يَسْرُد:

- قرأتُ: "أَلِيسْ في بلاد العجائب".. و"روبنسون كروزويه" و"رحلات جليفر"..

ولكي أتحداه قاطعته:

- يبدو أنّك لا تعرف حلقات "كابتن ماجد".. ولم تقرأ "هاري بوتر" أو لم تشاهد أيّ فيلم عنه..!

و لم يدعْني أكمِل بل قاطعني بردٍّ أذهلني و لم أفهم مَغْزاه:

- كلاّ، لا أعرفهُما، رُبّما أحفادي سيفعلون ذلك يوماً ما..

وما أثار استغرابـــي من هذا الصّبـــي هو عدم اهتمامه بأدوات العصر الحديثة، فسألْتُه:

- ألا تشاهد التلفزيون؟ أليس لـــديك حاســـوب أو لوحـــة إلكترونية أو هاتف ذكي..؟!

فردّ مُنفعِلاً:

- هل من المعقول أن تسألني عن أشياء لا أعرفها!

وقبل أن أسأله عن قصده بهذا الردّ، غيَّر الموضوع قائلا:

- أليس خَطِّيَ جميلاً؟

وبدأ يَخُطُّ بريشة حبرٍ على ورقةٍ من كرّاس، اسمَ.. محمد

ثم قال:

- أتدري! أستطيع أن أكتُبَ اسمَ محمد كاملا دون أن أرفـــع القلم من على الورقة؟

فقلت:

- أعرف ذلك، وقليلة هي الأسماء التي يمكن أن نكتُبَها بِسحبةِ قلمٍ واحدة..

فقاطعني:

- أتمنّى أن يصبح خَطِّيَ مثل خطّ ابن عمّك الهادي الذي كان خطُّهُ يُعجبكَ أنتَ أيضاً..

وهنا كِدتُ أسْقطُ إلى الخلْف من شِدّة استغرابـــي! فكيْف لـــه أن يعلمَ ذلك وأنا لم أقلْهُ في حياتي لأحَد إلاّ لابن عمّي نفسه وأنـــا صغير.

لم يترك لي الصّبـــي فُرصةً لأن استرجع تركيزي معه وسألني:

- هل تعلم لماذا أعيدُ قراءةَ الأمير الصغير؟

فقلتُ:

- كلاّ.. لماذا؟

فقال:

- لأني أريد أن أصيرَ طيّارا وكاتبا مثــل الكاتــب والطيّــار الفرنسي سانت-آكزوبيري الذي كتب الأمير الصــغير.. وهكــذا سأتمكّن أيضا من السّباحة بالطائرة في السّماء الزّرقاء..

فقلت متعجّبًا:

- سِباحة بالطائرة!.. لعلّك على حق، لِهذا يُسمّون الطّــيران مِلاحة جوّية..

نظر إليّ بإمعان وقال:

- أنتَ أيضا حين كُنتَ طفلاً كنتَ تــتمنى أن تكــونَ مِثــلَ آكزوبيري؟ وها أنتَ قد صِرتَ كاتباً!

فقلتُ وأنا في ذهولٍ شديدٍ من كلامه:

- إذنْ أنت تعرفني؟!

فقال واثقا:

- نعم..

في تلك اللحظة رنّ في جيْبــي هاتفي الجوّال بِقوّة لأنّي عــادةً ما أُبَرمجه مُرتفعَ الصّوت عندما أتنقل؛ وبعدها بلحظة جاء من خارج الغُرفة صوت رَجُلٍ، كان خافتا ولكنه مسموع:

- مَنْ في الدار؟

تعرّفْتُ على الصّوت، إنّه صوتُ ابن عمّي الهادي؛

أمّا الصّبي، الذي لا أدري إن كان هاتفي أو صوتُ ابن عمّي هو الذي جعله ينتفضُ مَذعوراً، فقد انطلق مُسْرعا إلى الفِناء مُتوجّها إلى مَصدر الصوْت الذي سُمِعَ من الغُرفة الوحيدة التي لم أدخلْها بعد؛

بخروج الصّبي، كانت الفُرْصة سانحة لأن استلَّ من دُرْج المكتب كُرّاس الصبي وأُخْفيهِ لِكيْ أطّلِعَ على ما فيهِ لاحقاً؛ وأيضا لم أكن أرغب في أن يغيب الصبي عن عيني ولو للحظة، لهذا السّبب ركضتُ مُسرعا وراءَه حتى أدركْته في مدخل الغُرفة التي أتى منها الصوت والتي ما أن تخطّى الصبي عتَبَتَها حتى تعثّر فسقط أرضاً وتعثّرتْ قدماي في جسده، فسقطتُ أنا بِدَوْري فوق الصبي.

وعِوَضاً عن خوْفي من أن أصيب الصبي بأذًى جسدي، تملّكني رُعْبٌ من الوضْع الجديد الذي وجدتُ نفسيَ فيه: وجدتُني مُلْقًى بالكامل على وجهي فوق أرضيةِ مدخل الغُرفة ولكن، وهنا المفاجأة الُمرعبة، لا أحد تحت جسدي!

بدا وكأن الصبي قد انصهر داخلَ صدْري وأحشائي!

مكثْتُ على تلك الوضعية لِلَحظات جلْتُ أثناءَها ببَصَري في أرجاء أرضية الغُرفة باحثا عن الصبي، وكأني كنتُ مُقتنعا بأنّه استطاع الإفلاتَ من سقوطي عليْهِ كما تَنْفَلِتُ حبّةُ الزيتون مِن تحت شوْكة الطّعام. لكن، لم يعد ثمّة صبي، لا تحتي ولا تحت السرير الذي في الغرفة ولا تحت خزانتها، فقط كان هناك بالفِعل ابن عمّي الهادي، رأيته ينهض أثناء ذلك مُتثاقلا من سريرٍ في الجهة اليُسرى من الغُرفة بعد أن كان قد نام على ما يبدو بِعُمْقٍ..

ولكن أين الصّبــي؟! أين اختفى..! كيف اختفى..!

وفي اللحظة التي هَمَمْتُ فيها بالنهوض تحسّستُ شيئاً ما تحــتي، بدا وكأنّه من ورَق، وبالفعل تبيّن أنّه كُرّاس الصبــي الذي أخذتــه قبل ذلك من دُرْجٍ المكتب. نعم ذلك الكُرّاس، حلّ تحتي في مكــان الصّبــي!

حينها كان ابن عمّي قد سارع نحوي لمساعدتي على النــهوض وهو يقول:

- مَنْ أنت؟ آه محمد؟ ابن عمي محمد! مرحبا.. هــل أُصِــبْتَ بأذى؟ أنا آسف إذا كانت عتَبَةُ الغُرفة مرتفعة أكثر من اللزوم، وقد سبق أن تعثّرتُ فيها أنا أيضا..

كنتُ في حالة صدْمة، ولم أتمالك نفسي حتّى حضِنتُ ابنَ عمّي بقوّة وكأنّي لأتأكد أنّه ليس شَبَحاً، ثم سألته:

- ألم ترَ صبيًّا دخل هُنا قبل قليل؟

فردّ مُستغرباً:

- أيّ صبــي! أنا في هذا اليوم وحدي في هذه الدار، جميعُهم خرجوا وسيعودون مساءً، ثم كيف دخلتَ أنت الدار؟

فرَويتُ له تفاصيل ما حدث لي مع الصبــي إلى غاية اختفائــه هنا في هذه الغرفة.. قلتُ له أنّ اسمَه محمد، كما قال لي هو نفســه، وأضفت أنّه يبدو في العاشرة من عمره.

فعاد إلى تأكيده بأنّه لا وجود لصبــي لا بهذا الاســم ولا في مثل هذا السِنّ بين أحفاده؛ فاقترحتُ عليه أن يُصاحبني إلى الغرفــة التي فيها مكتبه الصغير، فرافقني وهو يبتسم ابتهاجاً بقدومي مع بعض الاستغراب من سلوكي..

وكانت المفاجأة الأخرى.. حين دخلت مع ابن عمّي إلى الغرفة لم يعد هناك وجود لمكتب صغير فيها! بل مكتب كبير وعليه حاسوب وله دُرج واحد يحوي أقراصا مدمجة، فلا كتبٌ ولا قصصُ أطفالٍ ولا ريشة حِبر..

قلتُ لابن عمي:

- انتظرْ

تذكّرتُ كراس الصبي.. وهذه آخر مفاجأة أرويها عما حدث لي في هذا اليوم.. الكرّاس لم يعد كرّاساً مدرسياً بل صار في اللحظة التي انتقلت فيه مع الهادي إلى "غرفة" الصبي، دفتراً من النّوع الذي استعْمِلُهُ أنا نفسي لِلكتابة خارج البيت.. وقلّبتُ الدفترَ، وما راعني هو أنّ ما كنتُ أظنّه كتابةً بخطّ الصّبي، وجدت أنّها كتابتي أنا وبخطّي الذي لم يصبح جميلاً مثل خطّ ابن عمي الهادي، وما كان مكتوباً في الدفتر هو بالضّبط هذه الحكاية نفسها، حكايتي مع الصبي الكبير، التي رويتها الآن إليكما..!

آنذاك فهمت لماذا قال الصّبي أنّ اسمه مثل اسمي محمّد، ولماذا كان يعرف أني كنتُ أحلم بأن أكونَ مثل مؤلّف الأمير الصغير وفهمت أيضا لماذا كان الصبي على عِلْمٍ بإعجابي وأنا صغير بخطّ ابن عمي الهادي..

كما فهمت أيضا لماذا لم يكن يعرف معنى تلفزيون أو لوحة إلكترونية أو هاتف ذكي، ولماذا لم يكن يسمع بقصص "هاري بوتر" أو بحلقات "كابتن ماجد" أو بقصص الشاروني وبن جلون.. والسّبب هو أنّ كلَّ ذلك لم يكن قد وُجِدَ بعْد في عهْد ذاك الصبي!

وفهِمتُ أخيرا أيضا أن حكايتي مع الصبـــي الكبير كانـــت في الواقع هي حكايتي معي أنا بالذات، مع طفولتي التي استحضرتُها عبْر هذا الصبـــي الذي كنتُهُ.

عزيزيَّ، أيّها الطّفل وأيتها الطّفلة، الصغيران في السّن والكبيران في نظري..

كانت هذه حكايتي مع الصبـــي الكبير الذي تعلّمت منه كيف عليّ أن أكون حين أكبر: كاتباً، لكن لم أصبح طيّاراً..

و لم يَعُدْ ذلك مُلحًّا الآن بعد أن كبُرْتُ، و لم يعُد ذلك حُلُمـــاً بعد أن دعاني، ذاتَ رِحْلةٍ، صديقٌ طيّار لأنْ اصطَحِبَهُ في قُمرة قيادة الطائرة التي كان سائقَها وقائدَها؛ دعاني كضيْف ولـــيس كطيّـــار، وكان ذلك أثناء رحلة ليلية طويلة قادتني إلى مؤتمر كُتّـــاب في بلـــدٍ دُعيت إليه بِصفتي كاتباً..

أنا رأيتُ صديقي الطّيار كيف يقود طائرتَه، لكـــن صـــديقي الطّيار لم يكن معي وأنا أكتب هذه الحكاية عن الصبـــي الكبير..

بقيادة الطائرة لم يصبحْ صديقي كاتباً، لكنّي بالكتابة استطعْتُ أن أكونَ مع صديقي الطيّار وكأنّي طيّارٌ مِثْله، وَلَوْ بِرحلةٍ واحـــدة ولِمُدّة قصيرة.. وكان هذا كافياً.

عربة خضراء صغيرة تحمل العالم

محمد السالم

بين كراكيب السوق ذاتِ الرائحة النتنة كان منـــزوياً بجســـده الهزيل خلف عربةٍ خضراء اللون بعجلاتٍ ثلاث. لا يظهـــر، مـــن خلفها، سوى رأسه الصغير الأشعث. عيناه البريئتان تتجولان علـــى مهلٍ في تقاطعات الشوارع المكتظة بالمارة، حيـــث لا أحـــد يهـــتم بوجود هكذا أطفال.

فزّ ونصب جذعه، حينما مررت أحمل أكياساً مـــن الخضـــار المتنوعة، ساعياً أن يظفر بـــي قبل أن ينقض عليّ أصدقاؤه الآخرين، والذين يشاركونه كآبة العمل ذاته تحت شمس ظهيرةٍ لا ترحم كبيراً ولا صغيراً. دفع بعربته وأطلق ساقيه النحيلتين صوبـــي، ينـــادي بصوتٍ يافع: "عمي.. عمي". استدرت بتؤدةٍ ناحية الصوت المنبعث من حنجرةٍ جافةٍ ومتمزقةٍ بذلٍّ لا ذنب لها به. حين رأيته أدركـــت بأنه ليس إلا صبـــي آخر، لم يتجاوز بعد عامه الثاني عشر، دفعت به أشواك الحياة البائسة، وأنياب المعيشة المفترسة إلى طريقٍ واحدٍ وعرٍ لا يتجذّر ولا يتفرّع. الطريق الذي يصادف فيه أناساً على شاكلتي، قد ترقّ قلوبهم، أحياناً، ويشفقون. أو قد تتحجر، غالباً، من تكرار هذا المشهد العبثي في سديم ذاكرتهم.

بحركةٍ وحيدة، خطف الأكياس من بين يديَّ وأسكنها في باطن عربته. تجمدت في مكاني، مشدوهاً، أحاول تفسير لحظةٍ كهــذه، أو إيجاد حلٍّ للخروج من هذا المأزق. أقلت أنه مأزق؟ نعم، إنه كذلك. عندما أرى أطفالاً في أماكن لا يجدر أن يتواجدوا فيها، وفي وقــتٍ كان من الأصلح أن يكونوا فيه هناك على مقاعد الدراســة، بــين الكتب برفقة أقرانهم، لا عرباتٍ يدفعونها، وأمام من يقدّم لهم علمــاً نافعاً يكسبهم مستقبلاً مشرقاً، لا أمام من يتعاطف مــع وجــوههم المليئة بالتعب والشقاء فيجود بما في جيبه، بنية "الصدقة". فهذا، إذاً، يدعى "مأزق!".

لم أنبس ببنت شفة، و لم يفعل هو أيضاً. سرنا ســوياً بمحــاذاة دكاكين الفاكهة. رائحة الفاكهة كانت زكيةً يسري لهــا اللعــاب. خطفت نظرةً لوجهه، شاهدته يلهث جفاف حلقه بينمــا كانــت قطرات العرق تشقُّ طريقها في خارطة وجهه الأسمر.

– تريد ماء؟ سألته. نكّس رأسه بالإيجاب. أخرجت زوجاً من الريالات وابتعت عبوتان مياه معدنية، ثم مددت واحدةً له. عبّهــا في بلعومه كتائهٍ وجد بركة ماء في صحراءٍ فسيحة. "آخخ" قالها بنــبرة انتعاش. ابتسمت له، فبادلني الابتسامة.

كنت في قد قضيت حاجتي من السوق، فاتجهت حيث ركنت سيارتي، أمام بوابة إحدى مدارس البنين الابتدائية، لئلاّ أرهقه أكثــر إزاء ما يدفعه، العربة، وما فوقها من بضاعة تجعلها وزنها أثقل علــى أكتافِ صبــي هزيل. شعرت بأن الوقت قد حان لأقتنص فرصــة حديث عابر يبدد رتابة الصمت. "ما اسمك؟".. "محمد" أجــاب ثم أعاد السؤال إليَّ. "وأنت؟".. "أنا محمد أيضاً". ضحك مسروراً مــن

اسمنا المشترك. طأطأت رأسي مغموماً من أقدارنا المتضـــادة. أنـــا لم أضطر، عندما كنت في سنه، لأن أقضي نهاري وحيداً أدفـــع عربـــةً تحت شمسٍ واجمة، ولا لأن أتملق لغرباء من أجل حفنة قليلة القيمـــة، من الدراهم. فضولٌ اعتراني فسألته بوجسٍ من ردة فعل غير متوقّعة: "ماذا قد يجعل صبياً صغيراً مثلك يترك مدرسته ويزاول العمل؟ هـــل تجيد القراءة والكتابة حتى؟" غضن حاجبيه قبل أن يجيب:

"أبـــي يقول إن الرجل الحقيقي لا يقضي جلّ وقته على مقعد خشبـــي في غرفةٍ مغلقة. الرجل الحقيقي يقفز لميدان العمل ويجلـــب في نهاية اليوم نقودًا ينتفع بها أهله. لذلك، ولأن عائلتي بحاجة للمال، فأنني أعمل. أخي الصغير، اسمه "صالح"، لا يعمل مثلي. لأنه لـــيس رجلاً مثلي، أخبرني بذلك والدي. أنه يذهب إلى المدرسة كل يـــوم. هو ذكي جداً، ولكني أقوى لأنني أعمل (هزهز عربته في دلالةٍ علـــى القوة). حين يحل المساء، يخرج كرّاسته ويعلّمني كيف أكتب واقرأ. الآن أجدت القراءة، ولكنني لست جيدًا في الكتابة".

شغلني بحديثه عن قيظ الظهيرة. شمسٌ أخرى انتصفت في داخلي فأيقظت قهراً على حال الصبـــي المسكين.

"الرجل الحقيقي"، كذبة الآباء الأزلية في تطويـــق أبنـــائهم وإن اختلفت نواياهم. الكذبة التي قد تدمّر صبياً يانعـــاً وتنتقـــل بـــه إلى الصفوف الأخيرة المتاخمة لأبواب اليأس، والتي تكون مُشـــرّعة علـــى آخرها في المستقبل لا في الحاضر المباشر. لا ذنب لك يـــا صـــديقي الصغير فيما يحدث لك الآن، ولا ذنب لأبيك إن نضج علـــى هكـــذا اعتقاد، أو إن صفعته الحياة حتى رمى بك في شباكها متأملاً أن تفكّها عن جسده، أو أن تقلّل من شدة عقدها على عنقه واختناقه بها.

إنه ذنبنا نحن. أولئك الذين يمرون مرور الكرام أمامك يا صديقي، وأمام العديد من أصدقائك، يكتفون بإلقاء اللوم على عاتق المجتمع، متناسين أنهم المجتمع، وغافلين عن صفة الإنسانية التي أصبحت، في يومنا هذا، مجرد شعار نردِّده دون أن نؤمن بأصوله أو أن نعمل به. ذنبنا أننا أسرفنا بالبحلقة فيك وكأنك حالةٌ شاذة تستحق التأمل. ثم مضينا، إلى حيث أتينا، فارغي العين والقلب منك. فلم نبال بك، أو نستلهمك، أو حتى نستذكرك.

لم أنس أبداً عينيه البواحتين بما استعصى على شفتيه الكاظمتين.

حان وقت الوداع بوصولنا إلى سيارتي. ضغطت على الزر فارتفع بابها الخلفي. حمل الأكياس ووضعها في الداخل. "بكم أنا مدينٌ لك؟" سألته. أجاب بمكرٍ لا يعاتب عليه: "ما يأتي من الله كله خير". بينما كنت أفكر بما يمكنني أن أقدمه لهذا الصبي، فتحت أبواب المدرسة القريبة منّا معلنةً عن نهاية اليوم الدراسي. خرج جيشٌ من الصبيان يحملون أسلحة العلم في حقائب الظهر المنسدلة من أكتافهم. رحتُ أتنقّل بنظراتي بين هذا الصبي الواقف أمامي وتلك الأجساد المنبثقة من بوابة المدرسة. هو أيضًا نسي وجودي وراح يمعن النظر فيهم. ما الذي قد يفكّر به الآن؟ سألت نفسي، وانهمر سيلٌ من الإجابات في رأسي بظرف ثانية. "خذ، هذه لك" قلت له وأنا أمد بعض النقود إليه، لكنه لم يكن مصغياً لي. يُحدّق في تلك الأجساد الصغيرة بشديد النظرة، وكأنه يبحث عنه فيهم. بعد لحظةٍ موجزة، ركض ناحية المدرسة منادياً: "صالح.. صالح". اختلط جسده بينهم واختفى، فانتظرت إلى أن يعود. كان يتأبط ذراع أخيه الصغير بجبور حين رجع. "هذا أخي صالح الذي أخبرتك عنه" قال

لي. صافحني صالح، ثم قفز في حوض العربة، قفزة الطفـــل المســـرور الذي وجد، للتو، لعبةً يحبها.

تهللت تقاطيع وجهه بما قدّمته له. شكرني، ثم دفع عربته المثقلة بجسد أخيه القابع في حوضها وهو ينشدُ باستمتاعٍ، بمشاركة أخيــه صالح: "وطني حبيبـــي. وطني الغالي. وطني النجم العالي.. وطني".

رمقتهما بنظرةٍ أخيرة، قبل أن يلتهم ضياء النهار جســـديهما. تنهدت، ثم أدركت أنني اليوم كنت برفقة عربةٍ خضراء صغيرة تحمل العالم ومستقبله في باطنها.

رسالة إلى طفل
يخاف مما في الكتب!!

محمد العباس

اقتحم طفل مكتبتي الشخصية المتواضعة لأول مـــرة، فرأيـــت الدهشة والفضول والخوف في عينيه. وعندما سألني: هل قرأت كـــل هذه الكتب!؟ انتبهت إلى رغبة عميقة في داخله لأن يكـــون قارئـــاً فوعدته أن أجيبه برسالة طويلة تكون بمثابة الدليل إلى ما قد تهبه لـــه القراءة، وها هي:

ربما لم تصادف بعينيك الصغيرتين في يوم من الأيام كل هـــذا الكم من الكتب، وهذه المتاهة التي تحيّرك مجرد وريقات ضئيلة جـــداً مقارنة بما يوجد في المكتبة الكونية التي ألّفها الإنســـان علـــى مـــر العصور. وأعرف أنك ما زلت مصاباً بالخوف والارتبـــاك إزاء مـــا تحتويه الكتب لأنك لم تتحدث، على ما يبدو، مع من يخـــبرك بـــأن فيها – أي الكتب – ما هو أكثر وأهم من الأفكار.

دعني في البداية أهمس في أذنك الطريـــة، بأنـــك تســـتحق أن تتصفّحها، أن تلمسها بأصابعك الراغبة، أن ترضي فضولك بتمريـــر عينيك على سطورها، أن تشم رائحة الورق والأحبار الراسبة بـــين طياتها وأن تحتضن الكتاب إن وجدت بين سطوره من أو ما يحـــرك

عواطفك. فكل هذه الكتب المرصوصة في المكتبة الكونية كتبها أناس كانوا أطفالاً في يوم من الأيام، تماماً في نفس عمرك اليوم قبل أن يصيروا كتّاباً.

كل ما فكّر فيه الإنسان وأحسّه موجود في الكتب. وهي بالتالي - أي الكتب - ليست للكبار فقط، كما قد تتوهم. ففي هذا الكون المزدحم بالكلمات المصفوفة في الكتب، لا بد أن يكون هناك ما يناسبك ذهنياً وعاطفياً. فكما أن لجسدك حق التغذية البيولوجية، له حق الارتواء الوجداني والفكري، فلا تتردد في الاقتراب من شيء تستحقه. فالقراءة ليست هواية، كما قد تتصور، بل هي ضرورة. ولا يمكن لإنسان، مهما بلغ من الذكاء، أن ينمو وينضج بدون أن يعانقها.

سأغريك بحيلة لا يمكنك التفاوض معي على قبولها. لقد تمّ تصميم أدمغتنا لنفهم العالم من خلال القصص. وما أكثر القصص وما أمتعها. ولا أظن أن أحداً لا يحب القصص. إذاً، جرب أن تقرأ قصة. ففي القصة فكرة، ومغامرة، وخيال، ومعنى، وعاطفة، وألغاز، والأهم أن فيها يمكن أن تلتقي بأصدقاء، وأنت تحب تكوين الصداقات، ولذلك ستجد فيما تقرأه من قصص من يستحق أن تتخذه صديقاً، بالإضافة إلى ما ستتعرف عليه من معنى الصداقة.

هذا هو أقل ما يمكن أن تفعله القراءة بعقلك الطري ومشاعرك الرقيقة. فهي - أي القراءة - بمثابة الخارطة الذهنية والوجدانية، التي ستشكّل شخصيتك، حيث ستجد من خلالها ما تتبادله مع الآخرين، وما يقنعهم بكونك مختلفاً، وغنياً بالأفكار والحكايا. وعندي يقين بأنك فيما بعد ستتجاوز فكرة القراءة من أجل التواصل مع أصدقائك

إلى مرحلة الاتكاء على فعل القراءة لتبني ذاتك، وترسم ملامح هويتك.

ككل الأطفال، أنت لا تحب الوصايا التي يردّدها الكُبار. ولا تطيق أن يُملي عليك أحدٌ ما ينبغي عليك أن تفعله. ولذلك سأخاطبك كشخص ناضج، وسأقترح عليك بمنتهى النديّة وصفة القراءة لتعالج نفسك بها من الشعور بالملل والخوف والوحدة والدونية. أجل فالقراءة ستجعلك فيلسوفاً صغيراً، حكيماً بعض الشيء، وستمنحك الكثير من الفطنة والانتماء إلى العائلة الإنسانية التي تميزنا عن الممالك الحيوانية والموجودات الجمادية.

نعم، فالقراءة ستخلق منك شخصاً واعياً ومرحاً وشجاعاً. بمعنى أنك ستكون كائناً متعدد الأبعاد. وهذا ليس مجرد تلويح بشكل الشخص الرائع الذي ستكون عليه بعد أن تمارس طقس القراءة، بل هي حقيقة مجرّبة. فكل الناس الذين تكنّ لهم الإعجاب والتقدير، إنما أصبحوا على ذلك القدر من الوعي والمكانة بفضل القراءة.

الطفل الذي تبدو عليه اليوم، غداً سيكبر. وبالتأكيد، لا يمكنك تصوّر جسدك يكبر، فيما يتوقف عقلك عن النمو. فكّر في هذه المعادلة المادية المعنوية جيداً. فمن يقرأ اليوم يكون بالضرورة قائداً فاعلاً ورائداً في المستقبل، وسيكون جديراً بالحياة الحديثة المتجدّدة على كل المستويات. أما من يعاند فعل القراءة ويرفض أن يعيش حالة العشق مع الكتاب فلن يمكنه التعامل مع الحياة الجديدة لأنه أقل منها.

صدّقني، ستبكي كثيراً عندما تقرأ القصص. ستبكي حزناً على مصير الأبطال الذين يقاتلون من أجل أهدافهم النبيلة. ولا عيب في ذلك، فالدموع ليست عورة. وستضحك كثيراً أيضاً، احتفالاً

بانتصاراهم. لأنك عندما تقرأ القصص ستكتشف أن لديك عائلة ممتدة في الكتب تحزن لأحزاهم وتفرح لأفراحهم، وتربطك بهم رفقة الطريق والمصير. بمعنى أنك ستضع حواسك في مختبر القيم، وستصقلها بكل ما يهذّب روحك ويرقّق مشاعرك.

الكتاب وصفة سحرية. أقول لك هذا لأني على يقين بأن وجود الكتاب بين يديك يعني تغيير حياتك إلى الأفضل. ففي الكتاب توجد أفكار من هُم أعلم منا وأكثر معرفة بدروب الحياة ومباهجها. وبالتالي يمكن أن توفّر على نفسك شيئاً من التجربة التي لا بد أن تمر بها. فتجد في الكتاب ما يغنيك عن عشرات التجارب، ومعاناة المحاولات العبثية اليائسة.

مبهج منظر الطفل وهو يلعب بالنسبة لوالديه، لأن ذلك يدلّ على تعافيه النفسي والجسدي وحبه للحياة. والأكثر بهجة عندما يشاهدونه يقرأ. عندما يلمحونه وهو يحتضن الكتاب أو يقلّب صفحاته. فهذا المشهد الفاتن لا يصيبهم بالرضا والفخر وحسب، بل بالفرح والطمأنينة والتفكير في الصورة البهية التي سيبدو عليها طفلهم عندما يكبر وهو معبأ بالأفكار والمشاعر.

هذا لا يعني أنك ستقرأ فقط لتُرضي والديك، أو لتتفوق على أقرانك أو لتكسب إعجاب مدرّسيك، بل ستقرأ لتنافس نفسك. فالقراءة فعل ذاتي أشبه ما يكون بالطقس الروحي التربوي، وليس فعلاً استعراضياً لإدهاش الآخرين. ولذلك أتخيلك تقرأ كمن يربّي نفسه وينحت قوامها بالمعرفة الحسّية التي تختزنها الكتب.

الكتاب كائن بيولوجي يكبر بقدر ما نقرأه. ولذلك أراك تربّي صديقك الكتاب كل يوم. ستقرأ في البيت والمكتبة والحديقة

والطائرة والقطار. ستقرأ في الليل والنهار. ستقرأ جالساً ومستلقياً وواقفاً. ستقرأ في الوقت المستقطع ما بين انشغالاتك في الحياة. ستقرأ كثيراً حتى يكون لك قائمتك من الكتب وناديك من الكتاب الأصدقاء، وستختلف بما قرأته مع من كنت تهاب قراءتهم.

ألا تريد أن تفهم من أنت وكيف يتحرك هذا الوجود من حولك!؟ إذاً، فلتقتني الكتب التي تحبها، كتاباً.. كتاباً.. حتى تبني عشك الذي تأوي إليه. أعني مكتبتك الخاصة. ففي الكتب أجوبة كثيرة ومتنوعة على كل ما يجول في خاطرك، لتروي عطشك الداخلي الذي لمحته لحظة اقتحامك مكتبتي، فلتقرأ لتكون مكتبة بشرية تمشي على قدمين. فلتقرأ لتكون إنساناً على هيئة كتاب.

ma_alabbas@hotmail.com

ستعرف ما الذي تقرأه وما الذي لا تقرأه

رفوف الحياة

محمد خضر

نفس المقبض الذي طالما سألت نفسي: لماذا يبدو أصغر من اليد كلما تقدم العمر؟ مقبض لباب يفضي إلى غرفة الكتب المائلة وبالتتالي على بعضها في مكتبةٍ صغيرةٍ من عدة رفوف.. تستند إلى إحدى أركانِ الرف الثاني بينما ترتصُّ التحف والفراغ سيان في بقية الرفوف، لكن علاقتي بها لم تبدأ حقيقة وبشكل دائم إلا بعد أن عرفت مفردات كالمعرفة والبحث وذلك الشعور بالشغف نحوهما..

كانت الأسئلة تقف في طابور طويل أمامي.. أو بجانبي.. ومع كل مرة تفتح لي هذه المكتبة نافذة نحو عوالم جديدة وأسئلة تقود إلى أسئلة أخرى.. أكثر عمقاً في كل مرة وأوسع فضاء..

كنت مع كل مرة أبدأ بتسجيل ملاحظات أو مقتطفات في كراسة صغيرة من كل كتاب قرأته - على ذلك الرف الذي بدأت تزدحم فيه الكتب..

لم تكن المقتطفات فقط، بل زيّنت الكراسة برسومات تعبيرية عن مضامين تلك العبارات.. وكنت أرسم وجوهاً لبعض الأدباء وأكتب عنهم في محاولة لأن أترك انطباعي ورؤيتي..

كان ذلك في مقتبل العشرين من عمري، وكان هذا أمراً مهماً قادني للكتابة.. أن أجرِّب هذه اللذة في التعبير عن مكنوناتي عن أشياء بسيطة حولي، عن مفاهيم الحياة العامة كالصداقة والخير والعدالة وعن مواقف تمر بي أو رأياً بسيطاً أسجّله بعفوية، عن قضية ما حولي..

ما شعرتُ به تالياً أن ثمة شيئاً ما يكبر معي، علاقة تتوطد مع الكلمات، مع اللغة وهي لا تكتفي بالكتابة بل بعلاقتي الجوّانية بها.. بذلك الفراغ الذي كنت أتركه في الصفحة بياضاً شاسعاً ويحمل خلاله معنًى ما، كيف تتخلق العبارة كالسحر، وتصبحُ كائناً حياً من مفردات، وترتصُّ كأسطر، شيئاً ما كان يكبر ويتحول إلى الفن، إلى محاولة أن تتحول هذه العلاقة مع الكتابة إلى علاقة خاصة تعنيني وحدي وتعبِّر عني وحدي.

كان ذلك ممتعاً ويأخذ جلَّ وقتي مقسّماً بين القراءة والكتابة والتأمل، سنوات تمر ويصبح الأمر جزءاً مهماً من حياتي، بل لا أبالغ لو قلتُ أنه الجزء الأكبر والأوفر من أي شيء آخر، سنوات تمر والأسئلة تكبر ولذةُ المعرفةِ لا تتوقف، والكلمات تكبر وتصبحُ نصاً يمكن أن يشاركني به من يجدونَ في الأمر متعة ومن تدهشهم الكلمات مثلي.

هذه الكتابة منحتني حياة داخل الحياة، كتبت الخوابي في أعماقي وبحت لها بما يعتريني من حزن وفرح وعواطف مختلفة، لذا ارتبط كل شيء بهذا الفن، كان ملجأً رحباً، وركناً آمناً، وملاذاً في مرات كثيرة، ورغبة في كتابة شيء مختلف عن السائد وعن المكرر، بطريقتي أنا، بطريقة أن الكتابة فضاء نلوّنه كما نحبّ، وتسجيل بالكلمات لسيرة الروح، وكاميرا توثّق عن قرب مشاهد الحياة..

منحتني الكتابة أن أبحث دوماً عن المعرفة، أن أكتشف أكثر، أن يكون صوتي واضحاً تجاه قضايا الإنسان، في الحروب والمآسي والفقد والألم..

الكتابة ككتف واسعة، وكصديق قريب.. كرئة ونافذة مفتوحة تطل على الهواء..

التقيت كثيراً بأشخاص وقرّاء رائعين، كـــانوا يمنحــوني محبـــة إضافية للكتابة، ويصنعون جسراً وامتداداً بين ما أكتب وبينهم، وفي مرات كثيرة كانوا مدعاة لأن أستمر وأبدِّد مشاعر سلبية تعتريني بين فترة وأخرى، كانوا يتحسسون النص، يتآلفون معه، يغضبون حين لا يشعرون بـــي أحياناً، منحتني الكتابة صداقتهم ومحبتهم ووطناً قمنـــا نشكّله معاً بعد كل كتاب أطبعه، ماذا منحتني الكتابة كذلك؟

منحتني شعوراً مختلفاً بالأشياء من حولي، ومعياراً للمدى الذي وصلت إليه في العلاقة بين الحياة واللغة، بين قدرتي على التنفس أكثر وبين بياض الورقة..

الكتابة في انتظار الموت

محمد ديريه

صديقي العربـــي الصغير/ **تحية طيبة وبعد**

دون عنوان بريد واضح، سأكتب إليك رسالتي هذه لعلّ الموج يلقيها على عينيك، علّك تجدها في موقع إلكتـــرونيّ بالخطـــأ، عـــلّ صديقاً مشتركاً يعيد نشرها في الشبكات الاجتماعيّة بعد عشـــرين عاماً من الليلة.

ومما يربك لغتي المرتبكة أصلاً، أنّني بالكاد أتخيّل اليد الممـــدودة إليك الآن لتستلم بريداً من كاتب مغمور، يريد أن يحاورك، بـــل أن يقنعك بجدوى الكتابة الآن، بينما أنت تنتظر عشاءك البارد من يـــد موزّع الطعام في الملجأ الذي تسكنه منذ عامين، وهو يمدّ إليـــك الآن رسالة بلا عنوان والدهشة تملأ ملامحك.

أرجوك أن تقرأها ما دمت قد فتحتها، على الأقل لن يقرأهـــا غيرك في هذا المكان الذي يحسن فيه البعض القراءة، إلا أنّ الحـــارس اختارك من بينهم؛ لأنّك تتقاضى بعض الدراهم كي تكاتب أناساً لا تعرفهم بعد أن تقرأ رسائل لا تعرف من كتبها، وتمسك القلم مرخياً سمعك كي تنقل مشاعر رفاقك الأمّيّين إلى ذويهم، تشذّب أطـــراف

الكلمات، تحاول أن ترسم دمعة على هيئة جملة قصيرة كي يحوّل الأهالي مبلغاً صغيراً فوق الذي اعتادوا تحويله إلى ابنهم المحبوس، قدراً، بجوارك.

أعلم أنّك لم تنم البارحة بعد أن نالت موجة الذعر التي انتابت مهدي العراقيّ ليلاً وهو يتذكّر أيّامه السيّئة في سجن المالكي، فاضطر الحرّاس لصعقه كهربائيًّا كي يعود الهدوء إلى ليلكم الطويل؛ لقد تبوّل على نفسه المسكين، وتلك علامة هدوئه القادم لليلتين.

لن تزعجك سوى محاولات الطيب آدم لتبرير محاولته التسلل للعيش في ما يسمّى "إسرائيل" هارباً من سلّة غذاء العالم المثقوبة، تاركاً وراءه النيل العظيم يأكل أبناءه وبناته منذ خمسة وعشرين عاماً، باسم الإسلام ومقاومة الإمبرياليّة العالميّة، وأن تكون ديار أهله الكرام دار الهجرة لكلّ مطاردي العالم، بينما يفرغ السودان شيئاً فشيئاً من خيرة أبنائه، باحثين عن أمن وظيفيّ وعدالة اجتماعيّة حتى لو تحت نجمة داود السداسيّة.

على ذكر مقاومة الإمبرياليّة العالميّة؛ لك العزاء في صديقك النبيل حمزة محمود، كنت تعلم من أوّل يوم جيء به للملجأ مبتور القدم أنّه لن يعيش طويلاً، حتّى بعد أن أفقدته البراميل التي كان يلقيها النظام الممانع في بلاده قدمه اليمنى، إذ وصله خبر وفاة أمّه واختناق أخته الأحبّ لقلبه "مريم" تحت الأنقاض. ما هذه الأوطان التي تخنقك تحت الركام وتطاردك كي تقطع رجلك وتثكلك أمّك، ولا تمشي معك إلاّ في طريق التأكّد من موتك تماماً يا صديقي؟!

أرجوك،

أرجوك،

أن تسامح خالد النجدي وتتفهّم موقف فيكتور الموصلي، لم يكن أحدهما ينوي إيذاء الآخر لو كانا قد تقابلا في غير هذا المكان/الانتظار/اللعنة..

قبل شهر وصلت رسالة من شقيق خالد الذي تعب بحثاً عنه، ما كان فحواها؟

هل تذكر تلك الصدمة، أو لنقل الضحكة، وهو يكتب لأخيه الذي قبض عليه مع داعش قائلاً: بعد إجراء التحرّيات اللازمة والتأكّد من حيثيّات سجنكم الذي امتدّ لسبعة أعوام إثر اشتباه مشاركتكم في أحداث العلياء، تقرّر الآتي:

أوّلاً،

الحكم ببراءتكم عن التهم التي وجّهت إليكم، وهذا يعفيكم من إكمال المدّة التي قضيتموها في السجن الاحترازيّ، وإطلاق سراحكم بعد استكمال الإجراءات اللازمة.

ثانياً،

لثبوت تواجدكم في موقع الحادثة ووضعكم أنفسكم تحت الشبهة، سيتمّ التحفّظ على جواز سفر المتّهم لعامين حتى تثبت سيرته الحسنة ودوامه على الصلوات الخمس بورقة من مختار الحارة التي يسكن فيها.

ثالثاً،

يعوَّض المتّهم عن كل يوم سجن تحت التهمة قبل الحكم ببراءته .بمبلغ وقدره 100 دولار كونه من حاملي الشهادة الثانويّة ولم يستكمل دراسته الجامعيّة لظروف التحقيق التي استمرّت لسبع سنين.

لم ينتظر خالد شهراً بعد خروجه من السجن، أقام عرساً فاخراً، تزوّج من أخت لثلاثة شهداء في أفغانستان، كان قد سمع عنهم في السجن. لم يعد هناك داعٍ لاستكمال رحلته مع الطبّ ذي الطريق الطويل، ما دامت الشبهة قائمة حتى بعد تبرئته، تسلّل لغرفة أخيه الصغير فالح، أخذ جوازه وعبر نهر الأردن كي يكون في أوّل فوج يدخل الجنّة قبل أن تهبّ ريح من جهة صنعاء لا تبقي على الأرض من كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان.

وجد نفسه يعيد إنتاج الكهرباء للدولة الإسلاميّة في الموصل، شاهد الأنهار وهي تجفّ، شيوخ المندائيّة وهم يصلّون على جدول موحل، المسيحيّين، نوّارة الشرق وسكّان العراق قبل المسلمين، وهم يقتلون وتُسبى نساؤهم، كان يشتمّ رائحة الجنّة كلّ ليلة قبل نومه، لكنّ فيكتور أطاح به وهو يضع حرف "النون" على جدار بيتهم بالموصل، أمسك بيده وقال له: نحن مسيحيّون ولسنا نصارى، من أين أنت؟

لم يجبه خالد، وضع يده على الزناد لكن ضربة باغتته على رأسه من الخلف أيقظته وفيكتور وهما في هذا الملجأ منذ شهرين؛ ذلك أنّ قوّات التحالف قصفت بيت فيكتور باحثة عن خالد النجدي.

سعيد اليمني لا يحسن القراءة، كذلك مصطفى المصري، وأنت تقرأ كلّ أخبار اليمن السعيد ومصر المنصورة كلّ أسبوع دون تململ أو عناء. القدر وحده من أخرجك قارئاً للنور، للكلمات، لا تحزن عليهما فغداً سينالان حقّ الهجرة ويتعلّمان القراءة والكتابة بعد الثلاثين في منفى بارد، بعيد أطراف الليل، شديد أحزان الشتاء.

من بين كلّ ثلاثة شبّان مصريّين في سن العمل هناك واحد أمّيّ، ومن بين كل يمنيَّين هناك واحد لا يحسن القراءة. لا اليمن أمسى سعيداً ورئيسه محاصر في قصره، ولا مصر هي مصر التي نعرف ورئيسها المنتخب خلف القضبان بجوار ديكتاتورها السابق، الرؤساء خلف القضبان والشبّان يعانون من الأمّيّة والتبوّل اللاإراديّ في انتظار الهجرة لبلاد يقصفنا طيّاروها دون تمييز يا صديقي.

يقسم عزام الجزائري أنّ هذه ليست أوطاننا، بل يجب إعادة رسم الحدود بخطّ شفّاف كي ترفرف راية التوحيد من المحيط إلى الخليج. في التلفاز يظهر الرئيس الأمريكيّ قائلًا إنّ شرقاً أوسطاً جديداً على الأبواب، ويلوّح بخريطة جديدة بين أسنانه وفي كلماته حدودها الجديدة؛ العالم مكان خطير، كيف تواردت خواطر عزام الجزائري ورئيس هذا العالم التعيس ذي القطب الواحد الأعوج؟!

في بغداد، حاضرة العرب، يعيش 5,2 مليون أمّيّ من أصل ستّة ملايين أمّيّ في بلاد ما بين الرافدين، أين جلّاد أحمد بن حنبل كي أهمس في أذنه: ذكر ابن حنبل بقوله الشهير الذي أورده الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" حين لاقى يونس وقال له:

"يا يونس دخلتَ بغداد؟ فقال: لا.

قَالَ: يا يونس ما رأيتَ الدنيا، ولا رأيتَ الناس."

لقد أبصر العالم كلّه حزن العراقيّ في صوت رياض أحمد ووجه عبد الرزّاق عبد الواحد، لكن العراقيّ لم يبصر أخاه العراقيّ حين قتله عمدًا في مورد الماء.

في كل بريد تفتحه ستتوجّع، كل طابع بريديّ به رائحة الدم وعفار الحزن، وجه كلّ قادم مسغبة والبلاد هي البلاد، أوجاع، منافٍ بيديك جواز سفرها، سجون مفتوحة لمن يفتح فمه أو يتكلّم في حلمه، ما زلنا أمّيّين على ملّة آبائنا في الجور والقتل، يظلمنا الغريب ونظلم بني عمّنا، والقتال من عرسال إلى بوصاصو، بلا داعٍ سوى المدد.

الفقراء يرون الشتاء مقبلاً دون أغطية، الأغنياء محتارون في ساعة الانتظار بين طائرتين، هل ننتشي في أمستردام أم نلاعب قاصراً في بانكوك؟

عوراتنا تملأ الشاشات؛ أسنان وزراء خارجيّاتنا صفر وملامحهم كالحة، أطبّاؤنا تجّار، صيادلتنا بنات الأغنياء الذين سرقوا من جيوب الشعب كي يبيعوا عليهم الأدوية في ملامح بناهم المهجّنات بالحسن والدلال!

فوضى، زحام، وجوه تغزو صنعاء، عمائم لا تسمح لأحد الاقتراب من القصر الجمهوريّ في الخرطوم، خليفة الله تقبَّل يده في المغرب، وبلد المليون شاعر بلا شاعر يستحقّ الوقوف لأجله، طائرة من المنامة تضرب شيخاً في أطراف بعقوبة، تونسيّ يغطّي شاميّة بالحجاب حتى أخمص قدميها، إماراتيّة أولى جولاتها الحربيّة قنبلة في دير الزور؛ يا عيب الشوم، يا بؤس الرجال، كيف لا يتبوّل عربيّ في الثلاثين من مخاوفه ليلاً؟!

ماذا ستكتب يا صديقي، وأنت الذي، والأمّيون حولك، قد قرأت كلّ شيء؟

هناك أعمار فارغة للكتابة على شاطئ هادئ وقارورة شراب فاخرة بالجوار، هناك شعوب من حقها الحزن واستدعاء الكآبة

وانتظار طبيب لساعتين كي يشكو من فراق حبيبته التي تركته لحاجز ثقافيّ بحت، لكنّنا لا نملك هذا الحقّ حتّى.

كيف تصل للحزن وستّون من كل مائة طفل صومالّي لا يملكون فرصة التطعيم ضدّ شلل الأطفال أو العمى؟

بربّك، كيف أقنع رجلاً أو طفلاً شاخ في الأحزان مثلك فجأة، أن يأخذ محبرة ويكتب؟

ستطول القصة يا ابن أمّي، وجوه كثيرة ستتزاحم كي تحكي قصّتها للأجيال القادمة، ستطوّقك نداءات الموتى قبل رحيلهم.

كم ميّتاً، أستحلفك بالله، أن تخبر أهله عن موقف غيّر حياته للأبد، عن صفعة شرطيّ في زنزانة انفراديّة، عن مغصة جوع حلف بعدها ألاّ يبيت على الطوى، عن اسم الدواء الذي حين رفعته الصيدلانيّة أمامه وأرته الاسم ولم يجد في جيبه ثمنه؛ أغلق باب الصيدليّة على قسم ألاّ يعود للبيت خائب اليدين مهزوماً من أنّات ألم أمّه في الدار؟

اكتب،

لقد نجوت من الموت مراراً، ولقد سمعت الكثير في سنين قليلة، وطويت لك الأحداث حتى كأنّك تراها جمعت كي تكتب عنها أنت، لا غيرك.

كيف ستصدّق الأجيال القادمة إن لم تكتب أنّ رئيساً مصريًّا حاصر غزة أكثر من اليهود، وأن الفلسطينيّين قاوموا الموت وقوفاً مرّة، ومرّات بصوت محمود الذي قال في قصيدة من مسافر لآخر، بعد أن قال له الغيب "اكتب": "من يكتب حكايتَه يرثْ أرض الكلام، ويملك المعنى تماماً..."

اكتب،

فلن يأخذ بثأر القبيلة غيرك، اكبر من داخل الحروف لا بصوت الرصاص، كما أنضج نور الدين فارح عسكراً في رائعته خرائط.

اكتب،

كي يحين موسم قطف الزيتون.

اكتب،

وعنون نصّك القادم إن شئت بـــ "سيناريو مقتـــرح لمـــوتي" واعتذر حين تحبسك الدمعة للشاعر الفاخر أمين الربيع.

اكتب،

فالكتابة لعنة أبديّة، من يتأخّر في انتظار موت قادم.

أما الراحلون فقد ارتاحوا وألقوا بقسم تقسيم الأحزان في بياض الأوراق عليك، كنت الخطيط الذي فكّ الخط، فاكتب عنّـــا بحـــقّ الشرف الذي اختارك له الرب؛ أن تكون نبيًّا للآلام، في بلاد لم يعد فيها رسول.

صديقك المخلص

محمد ديريه

طبيب وكاتب صومالي

عمان

حكاية الدهشة

مريم جمعه فرج

طفل صغير سألني بالأمس: من الذي علّمك الكتابة؟

واليوم جاءني ذلك الطفل "سند" وفي رأسه حلم بأن يكتب رسالة حب لكل الأطفال الذين شردتهم الحرب. كل الصغار الذين يشاهد وجوههم الحزينة على الشاشة.

قلت له: علمتني الكتابة الدهشة. عندما نسمع الحكاية التي تدهشنا وتراقص أرواحنا، نحلّق في فضائها لتكبر الدهشة. وبمرور الوقت نكتشف أننا أبطالها، فنروي قصصنا التي نريدها أن تدهش الآخرين. حكايات الأمهات تزرع في رؤوسنا بذرة الدهشة. وقصص المعلمات ترويها علماً وتبعث فيها الحياة. حتى أنت يا صغيري تذكر حجم الدهشة في عينيك كلما مرت أمامك قصة حزينة عن طفل هرب من الموت إلى الموت يسأل عن حقه في الحياة. حينها تساءلت أين يذهب أبطال "خروفة" جدتك بعدما تنتهي حكاياها؟ أين تذهب سمكة البديحة الطيبة التي تقول جدتك أنها تخرج من البحر، وتفتح بطن الطفلة الجائعة وتملؤه بالطعام والماء وجنيهات الذهب؟ أين يذهب الطائر الطيب العجيب صديق الصغار، ومصباح علاء الدين السحري الذي يحقّق الأمنيات، أين تذهب الخيل ذات

الجناحين؟ كنت تبحث عنها في كل مكان فلا تجد لها أثرا في الصباح، وها أنت تطارد الحكايات. تتذكر أول حكاية..

تقول:

"خريريفة مجيريفة"

سبع قطيوات

معلقات في التنور

والتنور يريد حطبا

والحطب في شجرة السمرة

والسمرة تريد قدوم

والقدوم عند الحداد

والحداد يريد بيضة

والبيضة عند الدجاجة

والدجاجة تريد حبة

والحبة عند الزراع

والزراع يريد فلوس

والفلوس عند العروس

والعروس جابت ولد

والولد اسمه سند

ركب الخيل ما نام الليل

أعرف أنك تبحث عن ولد صغير في الحكاية يشبهك، اسمه سند. وأنك تتمنى أن تمتطي صهوة حصان مثل حصانه، يطير بعيدا، يحمل رسائل حب وحكايات تكتبها لمئات الأطفال الذين شرّدهم الحرب، الحكايا تُنبت منازل دافئة ومدارس وغذاء ودواء وأصدقاء.

أعرف أنه لا يوجد لديك إلا حلم الكتابة، وأنه ليس لديهم إلا حلم الحياة. أعرف أنك ما زلت تبحث عن العالم الذي يختبئ فيه أبطال الحكاية لتختبئ في ثناياه مثلهم، تحلم بسمكة خارقة تطعم مئات الصغار رغيف الخبز. وطائر عجيب يبني عشّاً آمناً لطفل، ومصباحا يضيء الطريق إلى المدرسة. وخيلاً مجنّحة تسافر بك بعيدا إليهم. لكن يا صغيري ستكتشف أن الحكاية ما هي إلا بذرة الدهشة التي تغرسها الأمهات في عقولنا، وأنها تكبر لصير بحجم الحياة.

لتكبر دهشتك، لنشترك معا، تروي لي حكاية وأروي لك حكاية عن الدهشة التي تحولت إلى قصة قصيرة. هذه بداية دهشتي، ميلادي. فأنا ولدت عندما كتبت أولى محاولاتي القصصية. كانت محاولات و لم أكن أدري إن كانت حكايات أم قصصا أم شعرا إلى أن اتضحت. ولما قرأتها معلمتي "أبله نجاح" أخبرتني بأنها قصة وأنني ربما أصبحت كاتبة! حينها كنت أشعر بالسعادة لأن تلك الكلمات منحتني الإحساس بأنني بدأت أتشكل في الحياة وليس في الكتابة فقط، عندها كنا ندرس في الصف الأول الثانوي. كنت محظوظة، ففي تلك المرحلة كان نشاط الأندية الثقافية الرياضية في الإمارات واضحاً، وكانت اللجان الثقافية تصدر مجلات ثقافية "مميّزة"، على الرغم من تواضع إمكاناتها المادية والفنية في تلك المرحلة المبكرة، إلا أن نشاطها الثقافي المعرفي كان محرّضاً لي على المشاركة بأي صورة من الصور. كنت أكتب الخاطرة والقصة غير المكتملة النضج وكان أخي وهو عضو في إحدى اللجان الثقافية يقوم بتسليمها للمجلة. كانت محاولاتي الكتابية تجد طريقها للنشر، والأهم أن هذه الخطوة الجريئة كانت النبراس الذي أضاء لي الطريق لكتابة القصة وقراءة

الأعمال الإبداعية القصصية والروائية العربية والمترجمة، التي كنت أتبادلها مع زملائي لصعوبة الحصول عليها في تلك المرحلة التي لم تتوفر فيها وسائل التواصل مع العالم الخارجي كما هو الحال في وقتنا الراهن.

كان مدهشا افتتاح الجمعيات النسائية في الإمارات. وبانضمامي إلى جمعية النهضة عام 1970 اكتسبت الخبرة فيما يتعلق بحقوق المرأة والاهتمام بإبداعها في كافة المجالات من أجل التنمية. وبالطبع كانت تلك واحدة من الأشياء التي ساعدت على تزويدي بالوعي اللازم لممارسة الكتابة. كانت الندوات والمحاضرات التي تقام أحياناً بمشاركة فعاليات ومؤسسات محلية ولجان ثقافية من الأندية الرياضية، إضافة إلى الجولات الميدانية والمكتبة الصغيرة المتواضعة، والزيارات التي كانت تنظّمها بعض الجمعيات النسائية المحلية والخليجية، رافدا مهما بالنسبة لي ولجميع من شاركوا في العمل في تلك المرحلة.

انتقلت من هذه المرحلة إلى إتمام دراستي الجامعية، وفي ثمانينيات القرن العشرين إلى مرحلة أكثر أهمية بالنسبة لي، برز فيها دور صحيفة الخليج الإماراتية كمنبر ثقافي، لعب دورا مهما في تشكيل حركة ثقافية شاملة شهدتها دولة الإمارات. وتحديدا، استفدت كما استفاد الكثير من مبدعي تلك الفترة من الإمكانات التي أتاحها لنا ملحق "الخليج الثقافي" في وجود رواد الثقافة والإبداع العرب العاملين في القسم الثقافي في صحيفة الخليج من أمثال الشاعر محمد الماغوط ود. يوسف عيدابي وغيرهم من المثقفين الذين قدّمونا إلى القارئ؛ غير أنني استطيع الجزم بأن تجربتي في كتابة القصة القصيرة قد

انصهرت وأنضجت في بوتقة الخليج الثقافي. كما كان لمجلة "الأزمنة العربية" دورا جاء مساعدا في تحفيز المبدعين في تلك المرحلة على المضي في هذه التجربة.

كما أن الشيء المهم بالنسبة لي فيما يتعلق بثمانينيات القرن العشرين، هو أنها كانت أيضا المرحلة التي صدرت خلالها باكورة أعمالي الإبداعية وهي مجموعة "فيروز" القصصية سنة 1988، عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات. أما المجموعة الثانية "ماء" فصدرت سنة 2001، عن دار الجديد، لبنان. في حين صدرت "النشيد" وهي مجموعة قصصية مشتركة بيني وبين الكاتبتين سلمى مطر سيف وأمينة أبو شهاب سنة 1982. في الترجمة والإعداد صدر لي "امرأة استثنائية" وهو ترجمة وتعليقات على بعض التجارب الإبداعية القصصية والشعرية النسائية حول العالم سنة 2003.

والواقع أنه كلما توفر لديّ المزاج للكتابة الذي لا بد وأن تحرّضه الدهشة من فكرة ما، شرعت بالجلوس أمام جهاز الكمبيوتر وأدخلت "الفلاش ميموري" للبدء بعمل جديد. وحسبما يمكن أن أصف نفسي فأنا كائنة نهارية، أعشق الصباح وتدغدغ داخلي رائحة الفجر، تحرضني ذهنياً. كما أن الهدوء هو ما أشعر بأنه يلزمني في هذه الأثناء لأعايش دهشتي من خلال ما توحي به من الأفكار، وعادة ما يستغرق ذلك وقتا قصيرا بالنسبة للقصة. لكن هنالك ما أشعر معه بأنني أتوقف لأستأنف الكتابة في وقت آخر. فبعدما أفرغ تماماً من كتابة النص أقوم بقراءته لنفسي وهي تساعدني كثيراً. وعلى الرغم من ذلك فقد انتابتني فترات جمود ذهني وليس استرخاء ففرضت على نفسي نوعاً من العزلة تخطّيتها بفضل الله، وباشرت كتابة عدد من

القصص القصيرة أحب منها "رقص الفناجين". إن كل واحـــد منـــا يكتب ولا يكتب عن نفسه، حيث الدهشة من الحياة تكبر لتصـــبح همّاً إنسانياً يشمل كل ما له علاقة بالحياة. ورغم أنني أعترف بـــأن القصة القصيرة هي ضالتي إلا أنني ربما كتبت الرواية. ربمـــا كـــبرت دهشتي لتكون رواية بحجم الحياة، وربما قرأتها يا سند لتشعر بأنك قد سمعت أو شاهدت مثلها في طفولتك.

رسالة إلى كاتب صغير

مسفر الغامدي

صديقي... اسمح لي أن أتجاوز السنوات الطويلة التي تفصل بيننا، وأناديك صديقي:

سأنتظرك بشوق في نهايات الكتابة لا في بداياتها، حيث تكون أنت وما تكتب شيئاً واحداً. هل تنفصل عن اسمك؟ عن لون بشرتك؟ عن طبقات صوتك؟ لا يمكن للكتابة، في نهاياتها إلا أن تكون على هذا النحو: مثل اسمك، لونك، صوتك... شيء لا ينفصل عنك، ولا تنفصل عنه. لن أحدّثك عن الكتابة الأولية التي تمارسها في صفك المدرسي. تلك كتابة مؤقتة تنتهي بانتهاء المعلم من تصحيح الكراسات والأوراق. ولا عن الكتابة الوسطى التي تتعلم فيها كيف تحاكي الآخرين، وتنتهي بتصفيقات أصدقائك ومحبيك، وبإعجابهم المشوب ببعض الشك والريبة. هي كتابة فانية، لا دخل لهذه الرسالة بها... سأحدثك في هذه الرسالة عن الكتابة الباقية. لا أقصد أبداً أن تقفز إلى أعلى السلم دفعة واحدة، ولكني أقصد أن تنظر إلى الأعلى على الدوام. لا تكفي بضع درجات في الأسفل لكي تصل إلى منتهى الرحلة... إلى تلك الصخرة المعلّقة في السماء.

أعلم أنه دون هذه الكتابة الفانية، لن نتعلم الكتابة الباقية في يوم من الأيام... لكني أعتقد أنها تشبه، إلى حدٍّ بعيد، محاولاتنا الأولى للوقوف. نولد مستلقين على ظهورنا... نولد غير مطمئنين إلى العالم الجديد الذي يستقبلنا، حياتنا ليست سوى نوبات متقطعة من الخوف والجوع، النوم والتثاؤب، البكاء والسكوت... شهراً فشهراً نطمئن إلى حياتنا الجديدة، وتنمو الابتسامة طريةً على أفواهنا. لا بد أنك شاهدت طفلاً في أشهره الأولى وهو يتعلم الابتسامة... هل هناك أجمل من ابتسامة تقطفها من فم طفل في أشهره الأولى؟ طفل يأنس للحياة الجديدة، ويسعى جاهداً ليغادر خوفه وبكاءه إلى الأبد. شهراً فشهراً يتعلم الطفل كيف ينقلب على بطنه، ويجاهد طويلاً لكي يرفع بصره إلى الأعلى. حين ينظر إلى الأرض لأول مرة، يدرك أن عليه ألّا يثبت في مكانه، وألّا يستسلم لضعفه وقلة حيلته، فالأرض أوسع بكثير من النقطة التي يقبع فيها. يتعلم بعد ذلك كيف يزحف إلى الأمام ببطء، يتعلم كيف يرفع بطنه عن الأرض، ويحبو بسرعة أكبر... في السنة الثانية من أعمارنا نبدأ محاولات المشي بالوقوف أولاً، نقف ونحاول أن نثبت أقدامنا على الأرض أطول فترة ممكنة. نسقط على الأرض. نبكي. نعاود الوقوف. نضحك ونصفق بأيدينا طويلاً. نسقط ثانية، نقف ونقدم رجلاً بارتباك شديد. نخطو خطوتنا الأولى على هذه الأرض. نضحك أكثر. نسقط، نقف، نخطو، وشهراً فشهراً يغدو المشي من صفاتنا. نمشي ولا نفكّر كيف نمشي.

صديقي الجميل...

الحياة البشرية مثل حياة كل منا تماماً. زحفت البشرية على بطونها، وحبت على أيديها وأرجلها، نهضت على قدميها، ومشت

أخيراً، ولكنها لم تتعلم كيف تقطع المسافات إلا حين تعلّمت الكتابة. لم يصبح لها أزمنة وتواريخ وحضارات واكتشافات، تنتقل من جيل إلى جيل، وتنمو حضارة بعد حضارة، إلا حين أصبح لها الكثير من الكتّاب والكتب. ولدت البشرية عمياء لأنها ولدت بلا ورقة وقلم، ولم تتعلم كيف تبصر، إلا حين أمسكت بالصخر، وبدأت تحفر بعض الصور والرموز التي تعبِّر عن الأشكال الأولى للكتابة.

الكتابة التي نتعلمها في الصفوف الدراسية، هي أشبه بتعلّمنا (وتعلّم البشرية) للمشي. الكتابة التي أحدّثك عنها هي الكتابة التي تقطع فيها مسافة. تنفصل عنك لتصبح لغيرك. تبدأ منك، وتنتهي في الآخرين... قد نتكلم، قد نهذي ونثرثر، قد نضحك ونبكي، قد نحسّ بآلام قاتلة، قد نشعر بفرح غامر... ولكن كل ذلك سيتحول إلى مجرد هباء لا قيمة له... إلى فقاعات صوتية تتطاير في الهواء بلا طائل. لن يتحول إلى قطعة باقية منا، إلا حين نحوّله إلى أثر خالد، إلى شجرة تمتد عنا لتظلل الكثيرين. نعم... الكتابة مثل الأشجار تماماً. تبدأ بحرف صغير، ينمو ليصبح كلمة فجملة ففقرة فنصا فكتاباً...

لا تيأس يا صديقي العزيز...

ستكبر وستكبر الكتابة بداخلك. عاماً فعاماً، لن تتعثر في الكلمات والجمل، ستكتب كما تمشي، كما تفرح، كما تحزن، ولن تسأل كيف حدث ذلك، لأن الكتابة ستغدو صفة من صفاتك. الكتابة تعلم الكتابة... كلما كتبت كلما أصبح في مقدورك أن تحرِّر قطعة فانية من حياتك، وأن تضمّها إلى متحف الخلود الذي ستنشئه لنفسك، وستشيّده حرفاً فحرفاً، وجملة إلى جوار جملة، وكتاباً بعد كتاب.

ولكن حذار... لا يمكن لنا أن نكتب دون أن نقرأ. تعلّمنا القراءة كيف تحرّر الآخرون من ذواتهم الضيقة، وكيف قطعوا كل تلك المسافات في طريقهم إلينا. اقرأ كثيراً، ولكن لا تدع الآخرين يحتلونك. أسوأ ما في هذه الحياة أن تجد كاتباً يقع تحت احتلال كاتب آخر. الكتّاب مثل الأوطان، بعضها حر وسيد نفسه، وبعضها محتل، أو مرهون تحت وصاية الآخرين وإرادتهم... بعضها منتج ومبدع وخلاّق، وبعضها يستهلك ما أنتجه الآخرون. الكتابة الحقيقية تعلّمنا كيف نتحرّر من كل جيوش الكتاب الآخرين. نقرؤهم، نحبهم، نكرههم، ولكننا ننفض أيدينا منهم فور مواجهة الورقة والقلم... الكيبورد والشاشة. حياتنا ليست كحياة الآخرين، فلماذا تكون كتابتنا ككتابتهم؟ الأمر سيكون سهلاً، إذا استطعت أن تقيم جسراً حقيقياً بين ما تكتب وما تعيش. اكتب لتحرِّر نفسك، لا لتجعلها نهباً لحياة الآخرين وأفكارهم وحكاياتهم وأساليبهم. اكتب لتكون أنت... أنت بالذات.

آهٍ يا صديقي النقي...

أدركُ أنني أعقّد الأمور عليك بعض الشيء، ولكن لك أن تتخيل هذه الصورة: تجلس في أسفل الوادي، وترى صخرة على قمة جبل ما. تريد أن تصل إلى تلك الصخرة لتشاهِد وتشاهَد بشكل أفضل. ترى طريقاً ممهداً يؤدي إلى الصخرة، داسته الأرجل لمئات السنين، تقرر ألاّ تمشي على نفس الطريق، وأن تخترع لك طريقاً جديداً، ستصادف الكثير من الصخور والأشواك، ستتعب أكثر، ستتعثر، ستقف، ستحتار، ستفكر... ولكن إذا أفلحت في الوصول إلى الصخرة (ولا أشك في أنك تستطيع فعل ذلك متى امتلكت موهبة حقيقية)، فسيكون الطريق طريقك... طريقك أنت بالذات.

الكتابة..
الطفلة التي كبرت معي

منال الشيخ

كان عمري خمس سنوات عندما تلقيتُ أول هدية تشجيعية من المدرسة بمناسبة تفوّقي. كانت عبارة عن طقم أقلام جاف باللونين الأحمر والأزرق. كنتُ أحب استخدام اللون الأحمر لأنني كنتُ أظنه تميزاً نظراً لأن المعلمة وحدها تستخدمه في تصحيح أوراقنا ودفاترنا.

كنتُ صغيرة لا أعي قيمة الهدية ورمزيتها. أذكر جيداً تأملت العلبة طويلاً وعن خططي التي كانت في ذهني وماذا سأفعل بالأقلام. بالكاد كنتُ أستطيع الكتابة، وهو ما كان يناسب مستوى طالب في الروضة التمهيدية أو الصف الأول الابتدائي. أول ما خطر في بالي الغض هو أن أكتب بها. لهذا وجدت الأقلام.. أن نكتب بها.

- لكني لا أعرف الكثير من الكلمات! قلتُ في نفسي.

هذا لم يمنعني أن ابدأ بالكتابة والشخبطة على صفحات دفاتر مستعملة. كنتُ أبحث عن صفحات فارغة كي املأها بما كنتُ أراهُ كتابةً. وإن لم أجد كنتُ ابحث عن مساحة فارغة في الصفحة المكتوب عليها مسبقاً. لم أدرك وقتها أن القراءة تأتي قبل الكتابة و لم أدرك أن الأفكار والتخيّل يأتيان قبلهما.

كل يوم أصحو وقبل أن أغسل وجهي كنتُ اهرعُ إلى القلمين وأوراق الدفاتر العتيقة. أرسم وأكتب ولا أتذكر مما كتبت سوى أشكالاً دائرية متشابكة يتخللها بعض الحروف والكلمات التي تعلّمتها في أول سنة لي في المدرسة. كنتُ أريد أن أكتب "نحلة" و"عنكبوت" ولكني لم استطع. كانت لدي مشكلة في كتابة الحشرات خوفاً من أن تتجسّد لي على الورقة وتزحف نحوي بعد قليل.

لحسن حظي كان أبي مدرّساً للغة العربية ويدّرس التلاميذ في للمرحلة الابتدائية. كان يحب القراءة جداً، خاصة الشعر وكتب التاريخ، وبيتنا لم يكن يخلو من هذه الكتب. بحسب ذاكرتي عن قلميّ الجافين وما ارتكبتُ بهما من جرائم على الجدران والكتب. فهمتُ فيما بعد، بعدما كبرتُ قليلاً، أن أحد ضحايا قلمي كان كتاب الشاعرة العراقية "نازك الملائكة" بعنوان (قضايا الشعر العربي) لأني وجدتهُ بعد سنوات وعليه "شخبطاتي" بالقلم الأحمر والأزرق. لم أكن أعلم أنني في يوم من الأيام كانت ستكون النقطة المضيئة في حياتي لبدايتي. سألتُ أبي عن الكتاب بوعي طفل ما زال يتذكر أول سنواتهِ في المدرسة. حدّثني عن الشاعرة وكنتُ انصتُ إليه بشغف متخيلةً تماماً نازك الملائكة أمامي بشحمها ولحمها. ولأني رأيتها جميلة جداً في عين أبي وكيف كان يتحدث عنها بسمو، قررتُ مع نفسي أن أكون كاتبة مثلها. كانت أمي تحلم أن أكون طبيبة أو مدرسة أجني الكثير من المال ويكون لي بيت مستقر وأولاد. لكن لوحة أبي عن "نازك الملائكة" غيّر مسار أحلام أمي لمستقبلي. بعد سنوات وقبل أن أصل إلى الإعدادية

أخبرتُ أمي أنني أريد أن أكون كاتبة. وقتها ضحكت ساخرة وقالت لي: أكملي دراستك أولاً ثم فكري ماذا ستكونين.

كان أهم شيء عند والدتي أن أكمل دراستي وأحصل على شهادة عالية تفخر بها أمام الناس. قلت في نفسي: لكن أنا أريد أن أكون كاتبة.. يجب أن أكون كاتبة!

البعض منا محظوظ بالصدف، وبعض الصدف تخلقُ التغيير في حياتك. ولأن البلد في تلك السنوات كانت تهتم كثيراً بالمدارس والمستوى التعليمي للأفراد فقد كانت لدي فرصة أكبر في أن اقرأ واختار الكتب التي استطيع الانطلاق منها. فلا كتابة بدون قراءة، كما كانت تردد دائماً مدرّسة اللغة العربية، عندما انتبهت أن اسلوبي في مادة "الانشاء" متميز عن بقية الطالبات. هي من تنبأت قبل الجميع أنني أملك مقومات مشروع كاتبة في المستقبل. مُدرّستي لم تكن تمارس عليّ دور المعلم والناصح وإنما كانت مثل قنديل في الظلام تحاول أن تريني الطريق الذي سيوصلني إلى غايتي: الكتابة. وفي ظني هذا أفضل شيء حصل لي بعد وجود أبي الذي تأثرتُ به مباشرة وبلغته.

يولد الانسان موهوباً.. الموهبة لا يمكن تعليمها وإنما تطويرها. وهنا عزيزي الطفل، أو أياً كان قارئ هذا الكلام، لن ألعب دور الناصح والمعلم عليك، وإنما أحاول أن أقصَّ عليك بدايتي مع الكتابة ربما تلهمك يوماً وتبدأ بقلم جاف وشخبطة أو بنقرة زر على الكيبورد لتنطلق.

الطفل لا يكتب قصصاً للأطفال بل يكتب عن عالمه الذي لا يعيه أنه عالم الأطفال. تصوّر أن هذا الخيال سينمو معك يوماً بعد

يوم وستتطور الكتابة عندك ولن تحس أنك تكتب قصصاً للمراهقين أو البالغين وإنما تكتب عالمك الذي يحيط بك. الآخرون هم من سيقرأون ما كتبت على أنه قصة للأطفال أو للناشئة أو للبالغين.

لماذا خصصوا لنا كتباً معيّنة لأعمارنا ونحن أطفالاً؟ هل لأن استيعابنا لكتب الكبار ليس بمستوى الكتب؟ هل سألت نفسك عزيزي الطفل لماذا تذهب بك والدتك أو والدك إلى قسم الأطفال في المكتبة العامة وليس إلى قسم الكبار؟ رغم أن بإمكان كثير من الأطفال قراءة ما مكتوب في كتب الكبار. إنه عالمك الذي تعيشه حالياً، لا أقصد القصص الخيالية التي تقرأ عنها ولا كتب المعلومات المبسّطة لك، وإنما عالمك الذي بدأ يتشكل الآن من جمع كل هذه التفاصيل الصغيرة للوصول إلى فكرة كبيرة ستقرأ عنها لاحقاً في كتب الكبار.

عزيزي الطفل، أنت ولدت في زمن التكنولوجيا، في وقت ازداد استخدام الإنترنيت وبرامج الاطلاع المباشرة وتراجع القراءة والكتابة بخط اليد. هل فكّرتَ يوماً أن تقتني دفتراً أو جورنالاً تخصصه للكتابة اليومية فيه وبالقلم الجاف أو الرصاص؟

عصرنا ليس عصركم... رغم ذلك أحاول بين الحين والآخر أن أكتب في دفتر ملاحظات بخط اليد كي لا أنسى أصل الكتابة.

ارسمْ.. أكتبْ.. شخبطْ.. كلها نوع من أنواع الكتابة والتعبير عما في داخلك. اللغات الأولى التي ظهرت على الأرض كانت تستخدم الصور للتعبير عما تريد قوله، المشكلة ليست في اللغة بل بإيجاد نقطتك الأولى للبدء بالكتابة. ليس على الجميع أن يكتب ولكن بظني على الجميع أن يقرأ. القراءة هي التي ستجعلك تكتشف ميلك للكتابة من عدمه.

تكلّم مع نفسكَ وشارك ما تتكلّم به مع شخص قريب يتفهّمك، ليس بالضرورة أن يكون أحد أبويك، ربما صديق أو مدرّس تميل إليه فيكون المساعد لك لتجد طريقك إلى الكتابة.

عزيزي الطفل، أعلم أن زمن الحكي بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً، وهذا شيء محزن لي لأن أكثر ما كان يشجّعني على الكتابة وأن اصبح مؤلفة في يوم ما هي حكايات أبي وجدتي لي. تعلمتُ منهما حب الحكي والسرد. كان أول نص كتبتهُ قصة قصيرة عن فتاة تائهة تحاول اكتشاف طريقها إلى بيت صديقتها فتضيع في الجزيرة وتبدأ مغامرتها من هناك. الفتاة كنتُ أنا في صغري. عندما عاندتُ والدتي وخرجتُ دون علمها قاصدة بيت صديقتي فلم أعرف العنوان وضعت. بقيت حكاية الضياع وأنا بعمر الخمس سنوات مثل ندبة سببت لي الرعب الكثير حتى خطر في بالي يوماً أن أكتب عن الحادثة. كتبتُ قصتي وأدركتُ بعدها أنني لم أعد أخاف من تلك الحادثة و لم يبق في ذاكرتي عنها سوى القصة المكتوبة. منذ لحظتها أدركتُ أن الكتابة بإمكانها أن تشفي في نفوسنا الكثير من الخوف والجروح.. استمريت في الكتابة حتى وجدت الفتاة الضائعة في صفحات قصص وكتب كتبتها فيما بعد..

"اكتبُ لأشفى" كما تقول الروائية التشيلية "إيزابيل الليندي" وأنا بدأت طريق الاستشفاء من أول قصة كتبتها عن ضياعي.

رسالة إلى طفل
صغير بحجم الكون

منى الشمري

أنت صغير ربما بحجم ذرة في هذا الكون اللامتناهي الشاسع، لكنك لست ضعيفاً برغم ضآلة حجمك، بل أنت تجمع في داخلك عناصر كونية تحتشد بقلبك، والله بحكمته لم يتركك وحيداً تواجه هذا العالم مترامي الأطراف، بلا نهايات تُرى، قبل أن يزودك بقوة عظيمة تعينك، ليس بالضرورة في حروبك، ولكن لتحمي نفسك أمام هذا الاتساع ومن كل ما يواجهك فيه حتى قبل ولادتك.. ألا وهو العقل.

من العقل أن تفهم أنه في الحياة ليس بالضرورة أن ينتصر أبطال الخير دوماً كما يحدث في مسرحيات الأطفال والأفلام الكرتونية التي تعشقها، الأشرار قد ينتصرون، لأن الشر له حظ أيضاً من الفوز، على الرغم من أنه ولد من رحم الباطل، وربما تتساءل: إن كان شراً فلماذا يعطيه الله القوة لينتصر، والفرصة ليفوز؟ ذلك لأن الحياة لن تستوي على وتيرة واحدة، فلولا التعب لما شعرنا بمتعة النجاح، ولولا الليل حالك السواد لما فرحنا بأشعة الفجر الأولى وهي تمتد كخيوط عنكبوت فضية تنشر نورها في السماء، ولولا المرض لما شكرنا الله

على العافية، ولولا العجز لما حمدناه على القدرة، القدرة التي تمكنّنا بسببها من القيام بذكره وشكره وحسن عبادته، ومن ثم تحقيق أحلامنا على الأرض ليكون لنا غاية من العيش عليها.

من العقل أن تجد مسافة وسطاً بين الخيال والواقع تتحكم فيها ولا تدعها تتحكم فيك، وأن تكون المخيّلة التي تحرض ذهنك، تشبه رحلة اكتشاف هذا العالم، من دون أن تكون محض خيال مفتوح على الخرافة التي تقدم لك هلوساتها أحياناً على المسرح أو في فيلم كرتوني.

الطبيعة ومكوناتها الجامدة بلا روح، وإن كان جزء منها مشبعاً بالحياة، لكنها لن تغيّرك ولن تغيّرها إلا عن طريق عقلك وأفكارك ونظرتك الإبداعية المختلفة إليها، فالشمس لن تتحدث معك يوماً، والقمر والنجوم لن تنزل من عليائها لترقص معك، وجدّتك التي ماتت لم تصبح غيمة بيضاء في السماء، بل ذهبت إلى أرحم الراحمين حيث الجنة بإذن الله، وجدّك لم يتحول إلى ملاك عند الله، في تغريب لأفكارك.. عليك أن تعي أن الملائكة جنس مختلف تماماً عن جنس البشر، خلقهم الله لمهمة مختلفة تماماً عن مهمتنا على الأرض ولأدوار مغايرة عن أدوارنا.

ولهذا عليك أن تتحكّم بالخيال الذي يسكن مخيلتك الواسعة كالكون، لا بد أن يظل التحكّم بالمخيلة الجميلة في قبضة يدك بكل قوة ووعي، تفتحها بالقدر الذي يجعلك تضحك وتمرح وتلعب وتستمتع، ثم تغلق عليها وتنام فلا تطبق بقوها على عقلك لتذهب بعيداً في عالم الأوهام التي قد تزرع في داخلك الخوف والخرافات وأكاذيب الحيل الفنية والحياتية وتحرمك من النوم، أو تشحنك بقدرة خارقة وهمية قد تخسر معها حياتك كما حدث لأطفال كثيرين في العالم.

أنت مخلوق لتتقبّل العمق على الرغم من صغر سنك، ولتركب المستحيل رغم أنك ستوصف بالعجز والضآلة، ولتحقق الانتصار رغم ما يهدد حياتك من مخاطر، تذكّرْ أن عقلك سيحدد لك متى ينبغي أن تكون مضحياً نبيلاً ومتى تكون واعياً لغزارتك وفرديتك.

افتح الطرقات كلها أمامك وحكّمْ إرادتك في الاختيار، اعترف بذاتك وبالآخرين وبكل ما يعزز إنسانيتك، ولا تقصِ من حولك بشراً مثلك يتشكل معهم جمال التنوع وروعة الوجود.

لا تقبل إلا بكبرياء روحك كي تدرك جمال الحنو والانحناء أمام الضعف البشري، لا تقبل أن تكون قارباً ضحلاً خالياً يقف في ميناء قديم، بل حارب الجهل واقرأ في كل شيء، وزوّد عقلك بالمعرفة والغذاء الروحي، واستمتع بمخيلة تسير إلى جانب الواقع والطبيعة لا عكسه حتى تؤمن بأن عروض الساحر ليست سحراً ولا قوى خارقة، إنما هي فن الخفة الذي يعتمد على التدريب حتى الإتقان، وهذا الفن يجد تقديراً من شغفك الطفولي به، إذ ليس هناك إنسان بحجم عقلة الإصبع، والبيض الملون اختراع بشري! استمتع بالقصص الخيالية لكن لا تنسَ أن تترك سؤالاً في إثرها: هل هي موجودة فعلاً؟ لا تنم في حضن أسطورة إلا وأنت مدرك حقيقتها، ولا تكن مفتوناً بخرافة إلا وأنت موقن بأنها بعض فانتازيا، ولا بالسحر لأن جمال الفن بالخيال، وبعض الخيال يحاول أن يتظاهر بأنه جزء من الواقع، ولهذا احتفظ بحق القبول والرفض، ولا تتنازل عن هذا الحق الذي يمنحك توازناً موضوعياً ومخيّلة سليمة قادرة على احتضان المتعة وليس بالضرورة اعتناق الفكرة.

لا تتخلَّ عن المخيلة، فهي العالم المفتوح أمامك بلا حدود، ولا تحتاج لتذكرة سفر لتحلّق في سمائها، وهي علبة الألوان التي تطلي

حياتك وتفاصيل المتعة فيها مثل ألعابك ودمى شقيقتك وعرائسها، وكتب القصص الأثيرة بألوانها الزاهية.

انصتْ لضجيج المخيّلة لكن لا تنسَ أن تسمع صوتك الداخلي، وحين تسمع كلمات الآخر لا تتجاهل تكوين لغتك الخاصة وحوارك مع نفسك، فمهما اتسعت المخيلة فإنك تنتمي لعالم إنساني حقيقي، ولا تغرقْ في ظلامية المخيلة حين تفصلك عن الواقع فصلاً نهائياً.

لا تكبر قبل وقتك، لا تتمنَّ أن تترك عربة الطفولة الجميلة لتتعلق بعالم الكبار، حيث تأسرك الأجهزة الحديثة التي توصف بالذكية وتسرق منك وقت اللعب والمرح، فهي تشل حركتك وتجعل منك شخصاً متبلداً جالساً أمام صورها السريعة التي تربك أعصابك وتتعب عينيك، ويسبب لك إدمانها الأذى والأمراض والكسل، بل خصّص لها وقتاً وللطبيعة وقتاً أكبر، ولا تخجل أن تلعب بالطين وتشكّل بيت الأحلام، جمّع الأصداف لتصنع منها وجوهاً ضاحكة، تسلّق الأشجار لتقطف الثمار أو تقترب من عش عصافير وتربط بين شجرتين حبلاً لتصنع أرجوحتك المحلّقة، ولا تركن دراجتك الهوائية في مكان مهجور من البيت، بحجة أنك كبرت، فحين تكبر ستعرف أن الكبار أكثر ما يشتهون أن يعودوا للطين والدراجة والأرجوحة، لكنهم لا يملكون القدرة على العودة لأيامهم الأولى حتى لا يقال عنهم (مخابيل)، وحين تكبر ستدرك متأخراً أن البهجة في التفاصيل الصغيرة التي تفرض عليك حياة الناس التخلي عنها بحجة أنك كبرت.

لا تنسَ أن جمال عقلك حين تكبر إنما يبدأ من جذور الطفولة فيك، فكل ما ستحتفظ به هذه الطفولة سيشكل أحلامك ونجاحاتك

وإحباطاتك، فتعلّم منها حتى الشغف، لأنك ستكتشف أن ذاكرتك وديعة مدهشة أودعها الله فيك كي تكون ذكياً تـــدرك معضـــلات الواقع مما يكمن في ذاتك من قوة التذكر وحضور الطاقـــة وبداهـــة المعرفة وحسها الاستكشافي الذي لا يهدأ.

إنك لست الطفل الذي أنت عليه الآن، إنك لست الحالة الأولى المبكرة التي تبدأ بها الآن، إنك لست وحدك، والعالم الذي تدركـــه الآن لن يكون كما هو حين يكبر الطفل الذي فيك، أنت أكبر مـــن كل ما تراه الآن في نفسك وفي الآخرين، أنت ذاك الإنسان الـــذي كرّمه الله وكرّمه الأنبياء والفلاسفة والشعراء والعلماء، وعلّمـــه الله الأسماء كلها، أنت ذاتك الإنسانية العميقة المبتكرة، أنت تلك الحياة العريضة المليئة بالنجاح والحلم والنظر الدائم إلى المستقبل، أنت ذلك الإنسان الذي راهن على أن البقاء للعقل والحرية والكرامة.

أنت - فقط - من ذرية روح الإنسان ويكفيك ذلك.

رسالة إلى طفل عربي

وديع سعادة

يا صديقي الصغير محمد،

هل تعرف كم يحبك أبوك وأمك؟ إنهما يا صديقي يحبانك أكثر بكثير مما تظنّ. إنهما يحبانك أكثر مما يحبان نفسيهما ومما يحبان حياتهما ذاتها... فهل ترضى يا محمد أن يقتلهما أحد؟

وهل تعرف يا صديقي الصغير، حين تكبر ويصير لك أطفال، كم ستحب أطفالك؟ فهل ترضى أن يقتلهم أحد؟ طبعاً لا، لا، لا.

لا شك يا صديقي أنك تتألم اليوم حين ترى أحداً يقتل أحداً آخر، كبيراً كان أو صغيراً، قريباً أو غير قريب. فلكل الناس أرواح مثل أرواحنا يا صديقي، سواء كانوا قريبين أو بعيدين.

اسمعْ يا محمد، أنت وُلدت في زمن يكثر فيه القتل والبغض. فخذْ من هذا الزمن الرديء أمثولة كي لا يتكرّر هذا القتل والبغض في زمنك حين تكبر. خذْ منه أمثولة كي يكون زمنك زمن المحبة والتسامح وليس زمن البغض والقتل.

وهل تعرف يا صديقي سبب هذا البغض والقتل؟ سببه الجهل والتخلّف والأمية. فهؤلاء الذين يبغضون الآخر أو يقتلونه لا يقرأون

الكتب ولا يعرفون أن المحبة هي وحدها التي تجعلهم سعداء في حياتهم وتجعل الآخرين سعداء أيضاً. أما القتل والبغض فلا يخلقان سوى جحيمهم، إذ إنهم حين يقتلون أحداً فإن ذويه سيثأرون منهم بقتل أولادهم أيضاً... فإن صادفتَ أحداً من هؤلاء القتلة اسأله: هل تريد أن يقتل أحدٌ أولادَك؟ إذا كنتَ لا تريد ذلك فلماذا أنت تقتل الآخرين؟! وإذا كنت لا تريد أن يبغضك أحد فلماذا تبغض سواك؟

الذي يقتل أحداً لا يعود إنساناً بل يصير وحشاً مثل وحوش الغابات. فهل تريد أنت يا صديقي أن تكون وحشاً؟!

يا صديقي محمد، كل الناس سواء. فلا أحد أفضل من أحد إلا بحجم محبّته للآخر. وليس لأحد سلطة على الآخر لا سيما سلطة القتل. فلا تستمع إلى القتلة والمبغضين حين يحاولون أن يجعلوك مثلهم. بل ارفضْهم وقلْ لهم: كل البشر سواسية، والمحبة وحدها هي التي تجعلكم سعداء وفي سلام، أما البغض فهو جحيمكم.

يا صديقي إقرأْ إقرأْ إقرأْ. ففي الكتب نور يهديك إلى المحبة والسعادة والسلام. إقرأْ يا صديقي، وستكون حين تكبر من الصالحين وليس من القتلة والمبغضين.

رسالة إلى زهرَتَيْ عباد الشمس:
هتون وهيام

يوسف المحيميد

كم تورطتُ، يا صغيرتيَّ، وأنا ألمح الحيرة في أعينكما تحدقان بما يحدث، كما لو كانتا تنظران نحو السقف الإسمنتي، فما أصعب أن تحتار زهرتا عباد شمس، وهما لا تريان الضوء، حيث السقف الغاضب الثقيل يجثم فوقهما، نعم كم هي الورطة كبيرة، وأنتما لا تدركان ما يحدث حولكما، والأصعب أنكما لا تعرفان كيف تواجهان هذا الذي يحدث، فهذا الوطن الكبير الذي تنتميان إليه، يعيش أسوأ حالاته على مر التاريخ، كيف أحمي براءتكما وهشاشتكما من شلال الدم اليومي، كيف أقنعكما بأن السماء لا تمطر براميل البارود فحسب، وأن غيمها في الأصل كان أبيضَ، وليس بلون المعدن، هل لو صعدتُ معكما إلى السطح ستفعلها سماء الرياض وتمطر، هل ستكف أسئلتكما عن حال سموات دمشق وحمص والموصل وغزة؟ وهل مطرها مطر، أم مطرها حجر؟

كيف أقنعكما أن النار فاكهة الشتاء، وليست حرائق المتفجرات والغاز؟

كيف أقنعكما أن الرمل هو بهجة النفود، وليس رمل الأكياس التي يتمترس خلفها المتناحرون؟

كيف أقنعكما بأن الرمادي في الأعلى سحاب يحمل خيراً، لا دخان أسودَ تناثرت تحته أحلامُ أطفال ونساء؟

كيف؟ لا شيء بيدي سوى الكلمات، ولا تملك أصابعي إلا الكتابة! سأكتب لي، لكما، لهم جميعا، رسالتي في الكتابة كيف تنقذ أرواحنا، وتحفظ أحلامنا، كما أفعل الآن.

***

كم مررتُ بحروب ونكسات كبيرة في طفولتي وشبابي، لكنني اكتشفت مبكراً طريقتي، فهل أترككما تكتشفان طريقتكما الخاصة في النجاة أيضاً؟ أم أخبركما كي تنجوان معي؟ هل أفعلها وأقول؟ هل أكرر ما فعله عقلة الأصبع، الذي رمى القمح في الغابة كي يهتدي إلى طريق العودة إلى البيت، هل أرمي لكما الكلمات كي تصنعا منها مخرجكما من المأزق، من مشهد الموت اليومي، من مشهد الأطفال المشردين، الأطفال الذين ينتشلونهم أمواتاً من الركام، الأطفال الذين فقدوا كل شيء!

نعم يا هتون، لا تنظري نحو الشمس فحسب، بل اغزلي من الكلمات قمصانا، وأطواقا من نجاة وياسمين، نعم يا هيام، أعرف مقدار ذكائك، وأنتِ قد تستوقفينني عند حكاية عقلة الأصبع، وتبرّرين كعادتك، بأنه ربما رمى القمح كي يطعم العصافير، لا ليعود إلى المنزل، هههه، وكعادتي أزدرد لعابي حين أقع في الحيرة والدهشة أمامك، وأهز كتفيَّ المنهكين: ربما.

كم تتمنيان يا زهرتا عباد الشمس، أن أطفال غـزة، وأطفـال دمشق وريفها، وحمص والموصل، كانوا صغارا جداً، بحجـم عقلـة الأصبع، حتى لا تهشّمهم الخرسانة والحديد، ويتسللون مـن تحـت الركام كالنمل المبتسم، الذي يسير مصحوبا بالغبار!

***

منذ أكثر من ربع قرن وأنا أؤاخي الكلمات، أصطحبها معـي، أو هي من يصطحبني، لا فرق؛ المهم أننا منذ أكثر من ربع قرن ونحن نسير معا، تقيم معي في عزلتي، تخرج من أرفف المكتبة، تحمل معي منفضـة الريش، وتطيّر الغبار، أراها في قاع فنجاني، أحياناً تأكل معي، وتـدخل في بيت الخلاء، تتسلل إلى أحلامي حين أنام، وتمسك بيدي في الصباح كي أذهب إلى موعد الطبيب، أنا شغوف بالكتابة، لا أكتب بحثاً عـن الشهرة، بل بحثاً عن النجاة، ولا أريد لكما الغرق في مآسي هذا العـالم القبيح، العالم المؤذي، علينا أن نقهر الألم بالكلمات، ونصـرع المـوت اليومي بالعبارات المؤاسية، ونوقف همجية الذاكرة التي تأكل أعضـاءنا، عضوا عضوا، علينا أن ننقذ أنفسنا من الذهاب إلى الهلاك، حين نستسلم لذاكراتنا، وللواقع اليومي، الذي يأتي على أجمل ما فينا. علينا أن نحيـي الحياة فينا، فما أجمل أن نتلقف معلومة ما، أن ننخر كالدود في كتـاب ما، فنشهق صاخبين وقد قبضت عقولنا الصغيرة معرفة جديدة، فالذاكرة كالوعاء، نضع فيه ما نريد، عليكما أن تكونا طباختين مـاهرتين، فـلا تضعها في وعائكما إلا ما يقودكما إلى الأمل، إلى المستقبل.

أنتما صغيرتان، ذاكرتكما غضّة، وتورق باستمرار، تحتـاج إلى التقليم والتهذيب باستمرار، تماماً كما هي حاجتها إلى الماء والغـذاء،

عليكما تنظيفها أولا بأول، كي لا تزدحم بالذكريات الثقيلة، فإما أن نعيش بخفة الكائنات التي تذهب في الضوء والأمل والأحلام، أو أن نبقى كالآخرين، ثقلاء نحمل الواقع فوق ظهورنا كصخرة سيزيف!

***

الكتابة لأجل الحياة، الكتابة لكي يستيقظ الصباح، وترسم التلميذة بالطبشورة قفصاً على السبورة، ثم تمسح باب القفص، فيحلّق العصفور مذعوراً، هارباً من نافذة الفصل. الكتابة لا ترسم واقعا موازياً كما نردّد دائماً، ولا تجمّل الواقع الوحشي الذي نعيش فيه، وإنما تضعه في كلمات صغيرة متوترة، على ورق أبيض، كي نكشفه ونعرّيه، أو نهرب منه وننساه، هل تذكرين يا هتون حين احترق مطبخ المنزل، وهربتما معا إلى بيت الجار، كيف كانت تلكم اللحظات ضاغطة على قلبك الصغير، وهل تذكرين متى امتلكتِ الجرأة كي تدخلي المطبخ مرة ثانية؟ كانت لحظات صعبة، ولم تطردي الذكريات المؤلمة للهب النار المتصاعد فوق موقد الفرن، حتى السقف الذي ذاب منهزما، لم تطردي تلكم الذكريات الحزينة ألا حينما قررتِ ذات مساء الكتابة، كنت تنكبين على طاولتي، وتكتبين عن طفلة يحاصرها اللهب في مطبخ المنزل، فتقاومه وتهزمه، ولعل المفاجأة الجميلة لي أن تخلصتِ من خوفك من النار، والأجمل بالنسبة لك أن حصلتِ على جائزة عن هذه القصة، عبارة عن حاسب آلي محمول، هل رأيتِ كيف استطاعت الكتابة أن تخادع الذاكرة، فتضع فيها جهازا محمولا بدلا من لهب نار مخيف!

هل تنقذ الكتابة ذاكرة، كما تنقذ طفلاً؟

***

كنتِ طفلة صغيرة، حبيبتي هيام، حينما كنت أنتزع الضحكات من فمك العابس، إذ تشرعين بالبكاء، كانت الكلمات وحدها سلاحي اليومي، أدفع البكاء بالكلمات، مهنتي قرب سريرك نضد الأناشيد الصغيرة، المترنمة، حتى تهتز خصلاتك بمتعة نادرة، أسلّيكِ فأنسيكِ البكاء، وما تلبث عيناك حتى تذهبان في ملكوت النوم، وكنت أحياناً أخطئ في توقيت الكف عن الغناء، ورفع كفي التي تهدهدك، فتفزعين متململة، فأكمل الأنشودة بصوت أخف: كانت بنتٌ لا تنام/تُدعى الصغيرة هيام/تخشى أن تبقى وحيدة/كلما حلّ الظلام. تشعل مصباح السرير/لتفرَّ عنها الأحلام.... إلخ.

هل تعرفين هيامي، أن في العالم أطفالاً في مثل سنّك، وأصغر أحياناً، لا يجدون حضن الأم، ولا هدهدة الأب عند النوم، هل سمعتِ عن الأطفال المشرّدين، والمهجّرين من أوطانهم بسبب الحرب، في سوريا مثلا هناك أطفال تهدَّمت بيوتهم من الطائرات التي تقذفهم بالبراميل المتفجرة، ومن نجا من هؤلاء الأطفال وجد نفسه وحيداً عارياً، ليس لديه عائلة ولا مسكن ولا مدرسة، حتى استضافته مخيمات اللاجئين في الأردن، ولبنان، وتركيا.

***

ما رأيكما، طفلتيّ الجميلتين، لو أنقذنا أحد هؤلاء الأطفال بالكتابة؟ هل هذا ممكن؟ لا، لا تذهبا بعيداً، لم أقصد أن ننصحهم بأن يكتبوا، كي يطردوا عن أنفسهم الذكريات الحزينة، وإن كان ذلك أمراً رائعاً، كما اقترحت عليكما في بداية رسالتي هذه، ولكن ماذا لو أنقذنا طفلا بكتابنا هذا؟ ماذا لو رسالتي هذه، ورسائل

صديقاتي وأصدقائي الكتَّاب، شكّلت كتاباً كاملاً، وتهافت عليه القراء، وأصبحت مبيعاته تكفي كي تنقذ طفلاً، كأن يأكل أو يشرب، أو يلتحق بالمدرسة؟ سيكون أمراً رائعاً حقاً، وسأقف لكما، ولجميع الأطفال المكتوبة لأجلهم هذه الرسائل، احتراماً، لأنكم كنتم السبب الرئيس في كتابة هذه الرسائل، وتأليف هذا الكتاب. فشكراً لكما، وشكراً لكم أطفال العالم.

أسطورة الكتابة

كتاب ينقذ طفلاً

هو: مجموعة رسائل ومقالات موجّهة إلى الطفولة العربية،
وُضِعت في كتاب عنوانه «كتاب ينقذ طفلاً»،
ويعود ريع أرباحه إلى الطفولة العربية المعذبة.

هم: أطفال عرب لا ذنب لهم في حروب الكبار،
ولكنهم علقوا في دوَّامة عنفها،
فضاعت ملامح حاضرهم ومستقبلهم.

أنتم: مدعوون لتحويل عنوان الكتاب إلى حقيقة واقعة،
لبلسمة جراح الطفولة وإعادة البسمة إلى وجهها،
وربما لإعادة رسم ملامح مستقبلها.

نحن: إثنان وثلاثون كاتبة وكاتباً عقدوا الخناصر والهمم،
ونسجوا طوق نجاة لإنقاذ الطفولة المعذبة،
فكان «كتاب ينقذ طفلاً».

إبراهيم الوافي، إبراهيم عبد المجيد، إبراهيم نصر الله، أمير تاج السر، أميرة شاكر صليبيخ، إيمان اليوسف، بثينة العيسى، رندا الشيخ، سعدية مفرح، سعيدة خاطر الفارسي، سلطان العميمي، عبد الله العريمي، عبدالرزّاق الربيعي، عبدالله السالم، عدنان الصائغ، عليا عبد السلام، غسان شبارو، مجاهد عبد المتعالي، محمد الرفرافي، محمد السالم، محمد العباس، محمد خضر، محمد ديريه، مريم جمعه فرج، مسفر الغامدي، معتز قطينة، منال الشيخ، منى الشمري، مهدي عبده، نوف الإسماعيل، وديع سعادة، يوسف المحيميد.









